في العصر المملوكي الأول



د. جلال يوسف العطاري



الزهراني



حركة التأليف العلمي
في مصر والشام

في العصر المملوكي الأول

العطاري- د. جلال يوسف
حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول/ د. جلال يوسف العطاري
عمان - دار الفكر ناشرون وموزعون 2010
ر.أ.: 2010/5/1405

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الأولى، 1432 - 2011



دار الفكر
ناشرون وموزعون

www.daralfiker.com
المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان
ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
هاتف: 4621938 6 962+ فاكس: 4654761 6 962+
ص.ب: 183520 عمان 11118 الأردن
بريد الكتروني: info@daralfiker.com
بريد المبيعات: sales@daralfiker.com

ISBN: 978-9957-07-814-0

حركة التأليف العلمي في مصر والشام

في العصر المملوكي الأول

د. جلال يوسف العطاري

الطبعة الأولى
1432-2011



المحتويات

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالعلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الذي علمه شديد القوى، إن هو إلا وحي يوحى، وبعد:

فموضوع هذا البحث هو: "حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول"، ويبدو لي أن ثمة مجموعة من العوامل تحفز المرء لدراسة هذا الموضوع في هذه الفترة الزمنية، ولعل أبرزها عاملان:

أولهما: ما أشيع في أوساط الباحثين في عصرنا الحالي من أن هذا العصر هو عصر تخلف وجمود فكري. وثانيهما: أن هذا العصر عصر تكالبت فيه الأمم والمحن على الأمة الإسلامية، فكانت ثقافتها وحضارتها مهددة، مثلما كان وجودها مهدداً أيضاً. فكان لابد لهذه الأمة من أن تتمسك بأسباب وجودها، وأن تتشبث بحضارتها وثقافتها، ومن هنا تأتي قيمة الدراسات الموضوعية المتخصصة في هذا العصر، فهي تحاول الكشف عن تجربة الأمة في هذه الفترة الزمنية، ومحاولتها للمحافظة على حضارتها وتراثها وثقافتها، وبالتالي وجودها أمام الأخطار التي تتهددها.

تقوم هذه الدراسة على فرضية مفادها: أن الحركة الفكرية في العصر المملوكي الأول كانت استمراراً للمسيرة الفكرية في عصور سابقة، ولكن في إطار ظروف ذلك العصر.

ومن أجل الكشف عن ذلك كان لابد لهذا البحث من أن يلقي الضوء على حركة التأليف العلمي في هذا العصر، بالتعرف إلى أسباب استمرار هذه الحركة، والنتائج التي تكشفت عنها في مختلف مجالات العلوم في ذلك الوقت.

وقد سبق هذه الدراسة حول هذا العصر دراسات تناولت بعض جوانب النتاج الفكري فيه، لعل أبرزها: "عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي" تأليف: محمود رزق سليم، وهذه الدراسة أقرب إلى ببليوغرافية وثائقية تعرض لأبرز علماء هذا العصر ونتاجهم العلمي الفكري. ومن هذه الدراسات: "الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام"، تأليف الدكتور: احمد أحمد بدوي، وقد تناولت هذه الدراسة جانباً قصيراً محدداً من الفترة الزمنية التي يتناولها هذا البحث.

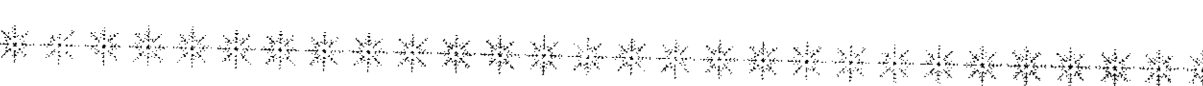
وأما الدراسة الثالثة فهي: "الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي"، تأليف الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، وواضح

أن هذه الدراسة تكشف عن الحركة الفكرية في جزء محدد من البيئة المكانية التي تحاول هذه الدراسة تغطيتها، وهي مصر والشام.

أما هذه الدراسة، فتتناول دراسة حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، لامتداد سلطان المماليك على هذه البقعة المكانية، حيث تتحدث عن عوامل ازدهار هذه الحركة ومظاهرها من خلال الكشف عما استجد من اتجاهات التأليف في كل علم من العلوم السائدة في ذلك الوقت، من علوم: القراءات والتفسير والحديث والفقه واللغة العربية واللسانيات والتاريخ والطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية والرياضية، بالإضافة إلى حديث عن ظاهرة فريدة في هذا العصر، ساهمت في حفظ الكثير من تراثنا، ألا وهي: ظاهرة الموسوعات.

وبعد، فآمل أن أوفق في الكشف عن جوانب هذا الموضوع، وتبين ما خفي من قضاياه. والله ولي التوفيق.

الباب الأول 1



عوامل ازدهار حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول

شهدت مصر والشام في العصر المملوكي الأول حركة علمية نشطة، فقد ساعد على ذلك مجموعة من العوامل، سنحاول تبينها والتعرف على آثارها.

الفصل الأول

إسهام المماليك في تشجيع العلم والعلماء:

حرص سلاطين المماليك على تشجيع العلماء، وتقريبهم من مجالسهم، صحيح أنهم لم يصلوا إلى درجة سلاطين الأيوبيين في العلم ومراتبه، إلا أنهم ساروا على نهج أسلافهم في تشجيعهم للعلم والعلماء، فقد كانوا يستشيرونهم في كثير من القضايا، وتشير المصادر إلى أن السلطان سيف الدين قطز لما عزم على الخروج لمواجهة التتار، جمع الأمراء واستشارهم، فأشاروا عليه بعقد مجلس، فجمع القضاة ومشايخ العلم، وكان شيخ الإسلام وسلطان العلماء في ذلك الوقت الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فحادثه في الخروج إلى لقاء التتار، فأشار عليه بالخروج وقال: "اخرج وأنا أضمن لك على الله النصر، فقال الملك: إن المال في خزانتي قليل، وأريد الاقتراض من التجار، فقال: إذا أحضرت أنت وجميع العسكر كل ما في بيوتكم، وما على نسائكم من الحلي الحرام، وضربته على السكة، وأنفقته في الجيش، وقصر عن القيام بكلفتهم فأنا أسال الله تعالى لكم في إظهار كنز من كنوز الأرض يكفيكم ويفضل عنكم، وأما أنكم تأخذون أموال المسلمين، وتخرجون إلى لقاء العدو، عليكم المحرمات من الأطرزة المزركشة أو المناطق المحرمة وتطلبون من الله النصر، فهذا لا سبيل إليه، فوافقوه، وأخرجوا ما عندهم، ففرقه وكفى، وخرجوا وانتصروا"(1).

ومثل ذلك ما فعله الظاهر بيبرس سنة 675. حينما جاءت الأخبار بأن التتار قد خرجوا إلى بلاد الشام، ووصلت أوائلهم إلى حلب، وعندما سمع السلطان بيبرس بذلك خرج من مصر على جرائد الخيل، فلما دخل الشام أقام بها، "وعقد مجلساً قيل فيه: إن التتار قد ملكوا البلاد، وإن الخزائن نفد ما فيها من المال، وأن القصد أن يأخذ من أموال الرعية ما يستعان به على دفع التتار، فأفتاه علماء الشام بأنه يجوز له أخذ أموال الرعية، فأخذ خطوطهم بذلك، ثم قال: هل بقي من أعيان العلماء أحد؟ قالوا: نعم، بقي الشيخ محيي الدين النووي رأس علماء الشافعية، فأحضره وقال له: اكتب خطك بذلك مع الفقهاء، فامتنع من ذلك. فقال له: ما سبب امتناعك؟ قال: أنا أعلم أنك كنت في الرق للأمير إيدكين البندقداري، وليس لك مال، ثم إن الله تعالى منّ عليك، وجعلك ملكاً، وبلغني أن عندك سبعة آلاف مملوك، ولكل مملوك حياصة ذهب، وعندك

مائتا جارية، لكل جارية حلي فاخرة ما بين ذهب ولؤلؤ وفصوص مثمنة، فإذا بعت ذلك جميعه، وبقيت مماليكك بالبنود والصوف بدلاً عن الحوايص الذهب، وباعت جواريك الحلي التي عندها، أفتيك بأخذ أموال الرعية، فلما سمع ذلك الملك الظاهر غضب منه، ورسم بأن يخرج من الشام ولا يقيم بها، فوقف العلماء والفقهاء للسلطان وقالوا: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به، فرسم السلطان برجوعه إلى دمشق، فامتنع من العودة إلى دمشق، وقال: لا أدخلها والظاهر في قيد الحياة"[2].

هذه الرواية وما سبقها تحمل أكثر من دلالة، إذ تبين حرص السلطان على مشورة الأمراء والعلماء في كل ما يعرض لهم، وفي كل أمر يستجد، كما تكشف عن حرصهم على أخذ موافقة العلماء الخطية في كل ما يفتون به، كما تشير إلى إذعان السلطان لرأي العلماء برجوعه عن قراره، بالإضافة إلى حرص العلماء على قول كلمة الحق والجهر بها، ولو كان ذلك أمام السلطان، ومهما كلفهم ذلك. وقد بلغ من خشية سلاطين المماليك من العلماء والفقهاء ما نقل عن الظاهر بيبرس أنه قال بعد وفاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام: "ما استقر ملكي إلا الآن، وكان الشيخ عز الدين يزجره عن المظالم وينهاه عن ذلك"[3] وكان الملك الناصر محمد يقول لجلسائه: "إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري، وهو قاض من قضاة الحنفية في عهده"[4].

هذا بالإضافة إلى رعاية سلاطين المماليك للعلم وأهله، فقد كان الملك الظاهر يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب[5].

كما كان سلاطين المماليك على قدر وافر من الديانة، والحرص على ملازمة الصلوات، وإقامة الفرائض، والقضاء على المحرمات ومحاربتها. فقد كان الظاهر بيبرس على قدر من الديانة "وكان ملازماً للخمس في أوقاتها، وألزم حاشيته بها، وحكي عنه أنه ما شرب خمراً قط، ومنع كل منكر، وكان يحصل من المنكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله، ولما حج رؤي بباب الكعبة محرماً يأخذ بأيدي الضعفاء ليصعدوا، وعمل ستور الديباج للكعبة والحجرة النبوية؟، وعندما وعظه أحد الشيوخ استعذب وعظه وأجزل عطاءه"[6].

وكان بعض السلاطين على قدر من العلم، فقد روى محيي الدين بن عبد الظاهر عن الملك الأشرف خليل بن قلاوون أنه ما رأى ولا سمع بأحسن من فهمه، إذ كان يعلم على المراسيم، يقرأها جميعاً، ويفهم ما فيها، ويقول: بل كان يخرج علينا بأشياء كثيرة في صنعة الإنشاء،

ونرى فيها الصواب منه"(7). وكان عند بعضهم علم بالفقه، فقد كان بيبرس الجاشنكير "موصوفاً بالعقل التام والفقه، خرج للحج سنة 701هـ وحج بالناس، وصنع من المعروف شيئاً كثيراً، وأبطل عدة بدع كانت معروفة، منها أنه قلع المسمار الذي كان في وسط الكعبة، وكان العوام يسمونه سرة الدنيا، وينبطح الواحد منهم على وجهه، ويضع سرته مكشوفة عليه، ويعتقد أن من فعل ذلك عتق من النار، كذلك أزال الحلقة التي يسمونها العروة الوثقى"(8). إن من يتصدى لمثل هذه البدع لابد أن يكون على قدر من الاطلاع على أمور الفقه، ملماً بكثير من مسائل الفروض والعبادات.

كما كان سلاطين المماليك يكنون كل التقدير والإجلال للعلماء، فقد روى صلاح الدين الصفدي عن السلطان المنصور لاجين قوله: "حكى لي الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس: لما دخل عليه لم يدعه يبوس الأرض، وقال: أهل العلم منزهون عن هذا، وأجلسه عنده، وأظنه قال: على المعقد، ورتبه موقّعاً، فباشر ذلك أياماً واستعفى، فأعفاه، وجعل المعلوم له راتباً، فتناوله إلى أن مات"(9).

أما الملك الناصر محمد بن قلاوون فقد كان مطاعاً مهيباً، عارفاً بالأمور، يعظم أهل العلم، ولا يقرر في المناصب الشرعية إلا من يكون أهلاً لها، ويتحرى لذلك ويبحث عنه ويبالغ"(10).

وكان الملك الناصر يحضر مجالس العلم، ويخلع على العلماء، فعندما افتتح الخانقاه التي أنشأها بجوار القصر بسرياقوس، حضره الصوفية والقضاة ومشايخ البلد، وسمع السلطان هناك على القاضي بد الدين بن جماعة عشرين حديثاً من تساعياته بقراءة ولده عز الدين، وخلع عليه خلعاً سنية، وأكرمه، وعمل السلطان بالخانقاه المذكورة وليمة عظيمة، وخلع على قاضي القضاة بدر الدين وعلى جماعة من الشيوخ، وفرق من الذهب والفضة على المشايخ ثلاثين ألف درهم"(11)، وفي رواية أخرى ستين ألف درهم فضة(12)، وكان الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاوون ذكياً مفرطاً، وله بعض اشتغال بالعلم(13)، وكان السلاطين يصدرون تكليف التدريس أو تفويض التدريس في بعض المدارس، يصدرونها بأنفسهم كالمدرسة الصلاحية والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفسطاط، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصوري، ودرس الجامع الطولوني ونحو ذلك(14).

ولم ينس سلاطين المماليك ضمان الحياة الكريمة، والدخل الذي يكفل لهؤلاء العلماء مستوى مرموقاً من العيش، إذ رتب الظاهر بيبرس في تربته مدرستين: شافعية وحنفية، ورتب في كل

مدرسة مدرساً له مائة وخمسون درهماً في الشهر"[15]، وجعل الملك المنصور قلاوون راتب المدرس في مدرسته مائتي درهم[16].

وأما أمراء المماليك فقد كانوا أوفر حظاً من السلاطين من حيث اطلاعهم على العلم، وتخصصهم في ميادينه المختلفة، ومشاركاتهم فيه، بل لقد ألف بعضهم المصنفات الجليلة في فنون العلم، فقد سمع الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام كتاب "الآثار" للطحاوي من الشيخ عبد الرحمن بن عبد المولى إبراهيم، فوصله ورتب له مرتباً(17). كما كان الأمير ركن الدين بيبرس الداوادار المنصوري عالماً فاضلاً، فقيهاً، نحوياً، ينظم الشعر، وألف تاريخاً سماه: "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة"(18) وكان خليل بن كيكلدي العلائي ممن سمعوا الحديث، حيث بلغت مشيخته قريباً من سبعمائة، كما رحل إلى الأقطار، واشتغل بالفقه والعربية، ومهر، وصنف التصانيف في الفقه والأصول والحديث... وقد لبس زي الفقهاء، وتولى تدريس الحديث بالناصرية ثم الصلاحية بالقدس(19). وسمع مغلطاي بن قليج الجكري الحديث، ودرس بالقاهرة، وصنف تصانيف كثيرة، قيل إن مصنفاته بلغت نحو المائة(20)، وكان للأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي مشاركة واسعة في العلم. فقد روى مسند الإمام الشافعي، وحدث به، ورتبه ترتيباً حسناً، وشرحه في مجلدات، كما قرأ الفقه على مذهب الشافعي وأفتى، واجتمع بأهل العلم، وأحسن إليهم(21).

وكان علاء الدين الطنبغا، دوادار الأمير علم الدين سنجر السابق، فقيهاً شافعياً فاضلاً، أديباً ماهراً، اجتمع بأهل العلم والأدب، وكان له إلمام بالشيخ صدر الدين بن الوكيل والشيخ تقي الدين بن تيمية، وهو أحد أخيار الحلقة بدمشق(22)، وكان الأمير سيف الدين شيخو الناصري كبير الدولة ومدبرها "يحب العلماء والفقهاء، ويجتمع بهم، ويحسن إليهم(23)، وأما الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري فقد كان أميراً جليلاً محباً للعلماء والفقهاء، يجتمع بهم، ويخالطهم، ويتكلم معهم، ويسدي إليهم المعروف"(24). هذه لمحة سريعة حول تقدير المماليك، سلاطينهم وأمرائهم، للعلم، وتشجيعهم لأهله، وإسهام بعضهم في ميادينه المختلفة، تكشف لنا عن محاولة سلاطين المماليك استشارة العلماء فيما يعرض لهم من أمر الأمة، وحرصهم على الأخذ برأيهم، كما تبين تقديرهم للعلماء وحرصهم على ضمان الحياة الكريمة لهم، بل لقد كان لبعضهم إسهامات واسعة في ميادين العلم المختلفة.

الهوامش:

1. السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1367هـ-1948م: 51، وانظر: ابن إياس، بدائع الزهور، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1395هـ-1975م: 1/1 30-302.
2. ابن إياس، بدائع الزهور: 337/1.
3. المصدر نفسه: 318/1.
4. رحلة ابن بطوطة، دار إحياء العلوم، بيروت، 1407هـ-1987م: 63/1.
5. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة: 182/7.
6. تاريخ ابن الوردي، المطبعة الوهبية، 1285هـ: 2/225.
7. بدائع الزهور: 376/1.
8. الشوكاني، البدر الطالع، مطبعة السعادة، القاهرة، 1348هـ: 1/166.
9. النجوم الزاهرة: 108/8.
10. البدر الطالع: 238/2.
11. تاريخ ابن الوردي: 278/2.
12. خطط المقريزي: مكتبة المثنى، بغداد: 2/422.
13. البدر الطالع: 208/1.
14. القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ-1987م: 400/4.
15. عز الدين بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1403هـ-1983م: 266.
16. المقريزي، السلوك، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1970م: 1049/1 نقلاً عن النويري في نهاية الأرب.
17. الصفدي، نكت الهميان، المطبعة الجمالية بمصر، 1329هـ-1911م: 189.
18. الصفدي، الوافي، فرانز شتاينر، فيسبادن، 1381هـ-1962م: 352/10. وانظر: بدائع الزهور: 408/1.
19. ابن حبيب، تذكرة النبيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982م: 245/1، وانظر: البدر الطالع: 245/1.
20. المصدر نفسه: 242/3، وانظر: المصدر نفسه: 312/2.
21. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، مكتبة المحتسب، عمان، 1973م: 2/271-272.
22. تذكرة النبيه: 50/3، وانظر الوافي: 366/9.
23. المصدر نفسه: 204/3.
24. المصدر نفسه: 3/213.

الفصل الثاني

دور العلم وتعددها في العصر المملوكي الأول

سار سلاطين المماليك وأمراؤهم على نهج أسلافهم الأيوبيين في إنشاء المدارس ووقفها على المذاهب الأربعة أو بعضها، فقد أنشأ المعز أيبك التركماني مدرسته المعروفة بالمعزية[1]، كما أنشأ المظفر قطز مدرسته التي بقرب حدرة البقر[2]، وعمر الظاهر بيبرس مدرسة، ووقف عليها درسين للفقه الشافعي والحنفي، كما أقر بها درساً للحديث ودرساً للقراءات السبع، وكانت هذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة[3]، وقد أنشأ الظاهر بيبرس أيضاً مدرسة ودار حديث بدمشق[4]، وأنشأ السلطان قلاوون مجمعاً علمياً ضخماً، ضم مدرسة وقبة وبيمار ستاناً، وقد رتب بالمدرسة دروساً للفقهاء الأربعة، ودرساً للطب، كما رتب بالقبة دروساً على المذاهب الأربعة ودرساً للحديث النبوي ودرساً لتفسير القرآن الكريم وميعاداً، وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجل الفقهاء المعتبرين، وفي هذه القبة قراء يتناوبون القراءة بالشبابيك المطلة على الشارع طول الليل والنهار[5]، وقد جددت هذه المدرسة في عهد الملك الأشرف خليل سنة 690هـ، وفي عهد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون سنة 761هـ..

وأمر السلطان زين الدين كتبغا المنصوري بإنشاء مدرسة إلى جوار القبة المنصورية، لكنه لم يتمها، فأمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بإتمامها، وهي من أجل مباني القاهرة، ورتب فيها دروساً للفقه على المذاهب الأربعة[6].

وأنشأ السلطان حسن بن محمد بن قلاوون مدرسة عند "سوق الخيل"، لم يعمر في سائر الأقاليم مثلها، قيل: إن إيوانها الكبير بني على قدر إيوان كسرى أنوشروان، وهي تشتمل على أربع مدارس، لكل شيخ مدرسة تختص به، يشغل فيها العلم، كما قرر بهذه المدرسة صوفية يحضرون من بعد العصر، ويقال إنه لم يبن على وجه الأرض مثلها أبداً[7]. أما أمراء المماليك، فقد كان حظهم في إنشاء المدارس أوفر من حظ السلاطين، فقد أنشأ الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني، نائب السلطنة بمصر للظاهر بيبرس وابنه الملك السعيد بركة خان، المدرسة الفارقانية بالقاهرة، ورتب بها درساً للشافعية، وآخر للحنفية[8]. وأنشأ الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش مدرسة بجوار الجامع الأزهر، وجعل بها درساً لفقهاء الشافعية[9].

وأنشأ الأمير علاء الدين أقبغا أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون مدرسة، وقرر بها درساً للشافعية وآخر للحنفية، كما جعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ، وقرر بها طائفة من

القراء يقرأون القرآن بشباكها[10]. وبنى الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري نائب السلطة بمصر مدرسة وجعلها برسم فقهاء الشافعية[11]. وأنشأ مثل هذه المدارس كل من: الأمير منكوتمر الحسامي[12]، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري[13]، والأمير سيف الدين اسنبغا الناصري[14]، والأمير بيدر الأيدمري[15]، والأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار[16]، والأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي[17]، والأمير علم الدين سنجر الجاولي[18]، والأمير صرغتمش الناصري[19].

وكان لنساء المماليك دور أيضاً في حركة بناء المدارس ووقفها، فقد أنشأت الست الجليلة خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون زوجة الأمير بكتمر الحجازي، مدرسة عرفت بالحجازية، وجعلت بها درساً للفقهاء الشافعية، وآخر للمالكية، وأنشأت بجوارها قبة، ورتبت لشباك هذه القبة عدة قراء يتناوبون قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً[20].

وأنشأت الست الجليلة بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان مدرسة، وعملت بها درساً للشافعية وآخر للحنفية[21]، كما بنت الست أيديكين زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصري مدرسة أيضاً[22].

وكان للوزراء وكبار الموظفين مشاركات في إنشاء المدارس أيضاً إذ أنشأ الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن حنا مدرسة "كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر، يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها، ويتشاحنون في سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة"[23].

وأنشأ الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل المعروف بابن البقري ناظر الذخيرة في أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون مدرسة "كانت في أبدع قالب وأبهج ترتيب، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية"[24].

وشارك الكتاب والعلماء في حركة بناء المدارس أو وقفها، فقد عمر الشيخ مجد الدين بن عبد العزيز بن الحسين الخليلي الداري مدرسة، "وقرر بها مدرساً شافعياً ومعيدين وعشرين نفراً طلبة"[25] وبنى الحكيم مهذب الدين محمد بن أبي الوحش المعروف بابن أبي أصيبعة رئيس الأطباء بديار مصر مدرسته المهذبية[26]، ووقف القاضي الرئيس شمس الدين محمد بن إبراهيم القيسراني، أحد موقعي الدست بالقاهرة، داره مدرسة قبل وفاته[27]، كما جدد القاضي علم الدين إبراهيم بن عبد اللطيف المعروف بابن الأمير ناظر الدولة في أيام الملك الناصر حسن، عمارة المدرسة الصاحبية[28].

وكان للتجار مساهمة في هذه الحركة، فقد أنشأ رئيس التجار في مصر برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلي مدرسة، أنفق في بنائها زيادة على خمسين ألف دينار(29)، وأنشأ بدر الدين محمد بن محمد الخروبي، التاجر في مطابخ السكر مدرسة، ورتب بها مدرسة فقه، وقد جدد حفيده نور الدين علي بن عز الدين بناءها(30)، كما أنشأ عز الدين محمد بن أحمد بن محمد الخروبي مدرسة أكبر من مدرسة عمه بدر الدين، إلا أنه مات قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها"(31).

وعلى العموم، فقد ذكر المقريزي في "خططه" بضعاً وأربعين مدرسة أنشئت أو وقفت في العصر المملوكي الأول في القاهرة، هذا عدا عن المدارس التي وجدت في أيام أسلافهم الأيوبيين، واستمرت عامرة بالتدريس والطلبة في العصر المملوكي، وقد تبين لنا أن جهات متعددة ساهمت في إنشاء هذه المدارس، وعلى رأسها سلاطين المماليك، ثم أمراؤهم وبعض نسائهم، كما شارك الوزراء وكبار الموظفين والعلماء والتجار في بناء هذه الصروح العلمية الضخمة، وقد قال ابن بطوطة عندما زار مصر: "أما المدارس بمصر، فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"(32).

وأما في دمشق، فلم يكن لسلاطين المماليك دور يذكر في إعمار مدارسها سوى المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس، وجعلها للحنفية والشافعية، بالإضافة إلى كونها دار حديث(33)، والمدرسة الجقمقية التي أسسها سنجر الهلالي، فانتزعها الملك الناصر حسن سنة 761هـ، وأمر بعمارتها، فبنيت بالحجر الأبلق، وجاءت في غاية الحسن، وهي مدرسة للحنفية(34).

ولأمراء الشام مشاركة واضحة في بناء المدارس في دمشق، فقد عمر تنكز مدرسة فيها(35)، ولسيف الدين بكتمر الخليلي مدرسة تعرف بالخليلية(36)، وبنى الأمير ناصر الدين القيمر أحد أمراء الجند المدرسة القيمرية الجوانية(37)، وأنشأ الأمير سيف الدين منجك أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون المدرسة المنجكية(38)، وبنى علم الدين سنجر الدوادار دار حديث ومدرسة ورباطاً(39)، ولناظر الأيتام في دمشق النفيس إسماعيل بن محمد الحراني مدرسة للحديث عرفت باسمه(40).

وللعلماء مشاركاتهم في بناء صروح الحركة العلمية في دمشق، إذ أنشأ وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا مدرسته الوجيهية، أنشأها، دار قرآن(41)، كما أنشأ عز الدين بن القلانسي دار حديث عرفت باسمه(42).

وكان للتجار دور في هذه الحركة، إذا أنشأ علي بن إسماعيل السنجاري أحد التجار داراً للقرآن عرفت باسمه(43)، وأنشأ التاجر شمس الدين بن الصبان دار القرآن والحديث الصبانية(44).

هذه أشهر المدارس التي بنيت في دمشق في العصر المملوكي الأول، وقد بقيت معظم المدارس التي كانت في العصر الأيوبي عامرة بالعلم والعلماء، ويذكر النعيمي أن في دمشق سبع دور للقرآن(45)، وفيها من دور الحديث ست عشرة داراً(36)، وثلاث دور للقرآن والحديث معاً(47).

أما مدارس الشافعية، فهي ثلاث وستون مدرسة(48)، واثنتان وخمسون مدرسة للحنفية(49)، وأربع مدارس للمالكية(50)، وإحدى عشرة مدرسة للحنابلة(51)، كما يذكر أن فيها ثلاث مدارس للطب، اثنتان منها أسستا قبل العصر المملوكي، وهي المدرسة اللبودية، وهي من إنشاء نجم الدين اللبودي(52).

وكما كان الحال في مدارس القاهرة، فإن مدارس دمشق قد شارك في بنائها أو وقفها أيضاً السلاطين والأمراء والتجار والعلماء، إلا أن حظ دمشق من المدارس في هذا العصر كان قليلاً إذا ما قورن بعدد المدارس التي أنشئت في مصر في ذلك العصر.

ويحاول أحد الباحثين المعاصرين تعليل ذلك بالقول: "إن الأيوبيين كانوا ينظرون إلى الشام على أنها موطنهم الأول، حيث عاشوا في كنف الدولة النورية السلجوقية قبل قدومهم إلى مصر، بل إن كثيراً من أفراد البيت الأيوبي كانوا يقيمون في الشام بصفة دائمة"(53)، ولست أرى في هذا الكلام معنى، إلا إذا قصد الباحث أن المماليك لم يكونوا يرون في الشام إلا مكاناً لبسط نفوذهم، وامتداداً لحكمهم، وليست داراً لهم، أما الأيوبيون فهم الذين كانوا يعدونها دار إقامة لهم.

وأما في بيت المقدس، فقد كثرت المدارس التي بنيت في العصر المملوكي الأول، وقد شاركت في بنائها أو وقفها فئات من السلاطين والأمراء والعلماء وأهل الخير من التجار والكبراء، وفي هذا العصر أنشئ في بيت المقدس ما يقارب أربعين مدرسة، وكانوا بذلك أكثر نشاطاً من سلاطين الأيوبيين في إنشاء المدارس، حيث إن الأيوبيين أنشأوا عدداً أقل من المدارس"(54) ويذكر أستاذنا الدكتور عبد الجليل هذه المدارس مرتبة حسب عصور سلاطين المماليك(55).

ويبدو أن نشاط الأمراء في بناء المدارس في بيت المقدس كان وافراً، إذ جاء معظمها من إنشائهم أو وقفهم مثل: المدرسة التنكزية لواقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام(56)،

والمدرسة البلدية لواقفها لواقفها الأمير منكلي بغا الأحمدي نائب حلب(57)، ثم المدرسة الأرغونية لواقفها أرغون الكاملي نائب الشام(58). والمدرسة المنجكية، لواقفها الأمير منجك نائب الشام(59)، والمدرسة الجاولية، وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة(60).

وشاركت نساء الأمراء في بناء المدارس ووقفها في القدس منها: المدرسة الخاتونية، واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين بن سيف الدين القازانية(61)، كما شارك الوزراء في ذلك، إذ أسسوا المدرسة الكريمية لواقفها الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس(62)، وللعلماء مشاركاتهم أيضاً إذ بنوا المدرسة المحدثية لواقفها عز الدين عبد العزيز العجمي، وكان محدثاً(63).

وقد شهدت كثير من حواضر مصر في العصر المملوكي الأول حركة علمية، تمثلت في المدارس التي أنشئت فيها، فمما يذكره ابن بطوطة مثلاً أنه كان بدمياط مثلاً والٍ من ذوي الاحسان والفضل، بنى مدرسة على شاطئ النيل(64)، ويقول عن مدينة المنية: "بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد(65)، ويذكر مدينة إخميم ويقول: إن بها مدرسة(66)، ويذكر مدينة "هو" ويقل إنه نزل بمدرسة تقي الدين بن سراج فيها(67)، ثم يذكر مدينة قنا وبها المدرسة السيفية(68)، ثم مدينة "قوص" وبها المساجد الكثيرة والمدارس الأثيرة(69)، ثم مدينة أسنا التي يقول بها: "وهي مدينة مثيرة كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع"(70).

أما حواضر الشام، فحظيت منذ أيام الأيوبيين بعدد وافر من المدارس، فقد كان في حلب مثلاً ما يزيد على خمسين مدرسة حتى العصر المملوكي، وأكثر مدارسها أنشئت في الدولتين النورية والصلاحية(71)، ومن مدارسها التي أنشئت في العصر المملوكي الأول: الإلجانية التي أنشأها إلجاي أمير السلاح زمن اشقتمر(72). والمدرسة الصاحبية، أنشأها شهاب الدين أحمد بن الصاحب(73)، والمدرسة الناصرية، التي كانت كنيسة لليهود وثبت أنها محدثة، فقلبت مدرسة سنة727هـ(74)، ويقول ابن بطوطة في ذكر مدارس حلب: "وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وإتقان الصنعة تنسب لأمراء بني حمدان، وبالبلد سواها ثلاث مدارس وبها مارستان"(75).

وكان في حماة حتى نهاية العصر المملوكي سبع مدارس، واحدة منها بنيت في العصر المملوكي الأول، بناها محمد بن حمزة العزي سنة 727هـ(76).

وفي طرابلس عدد آخر من المدارس(77)، منها في العصر المملوكي الأول: المدرسة القرطائية يظن أن بانيها هو قرطاي بن عبد الله الناصري بنيت سنة 726هـ(78)، والمدرسة الزريقية،

بناها سيف الدين كرناكاي السيفي سنة 738هـ[79]، والمدرسة الخاتونية بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين أيدمر الأشرفي والي طرابلس سنة 775هـ[80].

ومن المدارس التي بنيت في العصر المملوكي الأول في بلاد الشام أيضاً مدرسة حصن الأكراد، أنشأها والي هذه البلدة بكتمر بن عبد الله الأشرفي سنة 719هـ[81]، ومدرسة في غزة كانت شافعية أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي[82]، ومدرسة في مدينة الصلت اسمها السيفية لمنشئها سيف الدين بكتمر والي الولاية سنة 724هـ[83]، ومدرسة في مدينة المعرة بناها ابن الوردي في منتصف المائة الثامنة[84].

ولم تكن مراكز العلم في العصر المملوكي الأول مقتصرة على مدارس، فقد كانت الخوانق والزوايا والربط والترب في هذه الحواضر مراكز علمية، ساهمت في دفع الحركة العلمية في مصر والشام في هذا العصر، وتخرج فيها الكثير من علماء العصر ومشايخه[85]. أما الخوانق، ومفردها خانقاه: "وهي كلمة فارسية معناها بيت، وقيل: أصلها خونقاه، أي: الموضع الذي يأكل فيه الملك، وقد أحدثت الخوانق في حدود الأربعمائة هجرية، وجعلت لتخلو الصوفية فيها لعبادة الله تعالى".

فالخوانق إذن، هي بيوت يخلو فيها الصوفي لعبادة الله سبحانه وتعالى، ولكن دور الخوانق لم يقتصر على هذا الجانب الديني، بل كانت هذه الخوانق مراكز علم أيضاً، يتولى مشيختها الأكابر والأعيان من العلماء، وسكانها من الصوفية ممن يعرفون بالعلم والصلاح، وترجى بركتهم.

وكانت هذه الخوانق كثيرة في مصر والشام، ففي القاهرة أكثر سلاطين المماليك وأمراؤهم من إنشائها، ووقفوا للإنفاق عليها الأوقاف الجليلة، ومن هذه الخوانق على سبيل المثال: خانقاه ركن الدين بيبرس وهي "أجل خانقاه بالقاهرة بنياناً، وأوسعها مقداراً، وأتقنها صنعة، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري"[86]، هذه الخانقاه كانت مركزاً علمياً يضم خانقاه ورباطاً وقبة، وقد قرر فيها أربعمائة صوفي، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخاً يفرق على كل منهم في كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر، وجعل لهم الحلوى، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوي، له مدرس، وعنده عدة من المحدثين، ورتب القراء بالشباك يتناوبون القراءة فيه ليلاً ونهاراً[87].

ومن أعظم هذه الخوانق خانقاه سرياقوس التي أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد جعل بها خلوة لمائة صوفي، وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة، وبنى بها حماماً

ومطبخاً، ولعظم مقام هذه الخانقاه فقد لقب شيخها بشيخ الشيوخ، وكان هذا اللقب من قبل خاصاً بشيخ الخانقاه والصلاحية(88)، ورتب في هذه الخانقاه درساً للحديث النبوي استمع الملك الناصر إليه في حفل افتتاحه(89).

وقد شارك أمراء المماليك في بناء هذه الخوانق أو وقفها، ومنهم الأمير سيف الدين شيخو العمري، أنشأ خانقاه عرفت باسمه على مساحة من الأرض تزيد على فدان، حيث اختط فيها الخانقاه وحمامين وعدة حوانيت يعلوها بيوت لسكنى العامة، ورتب فيها عدة دروس منها: أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرس للحديث النبوي، ودرس لإقراء القرآن بالروايات السبع، وجعل لكل درس مدرساً، وعنده جماعة من الطلبة، وشرط عليهم حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف(90).

كما أنشأ الأمير سيف الدين الجيبغا المظفري خانقاه باسمه، وكان بها عدة من الفقراء يقيمون بها، ولهم فيها شيخ ويحضرون في كل يوم وظيفة التصوف، ولهم الطعام والخبز، وكان بها حوض ماء لشرب الدواب، وسقاية بها الماء العذب لشرب الناس، وكتّاب يقرأ أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى، ويتعلمون الخط، ولهم في كل يوم الخبز وغيره"(91).

وقد شاركت النساء في ذلك، فقد أنشأت آن أنوك الخاتون طغاي زوجة السلطان الناصر محمد بن قلاوون خانقاه خاصة بها(92)، وشارك التجار في ذلك أيضاً، فأنشأ كبير التجار زكي الدين الخروبي الخانقاه الخروبية(93).

وكانت هذه الخوانق في مصر كثيرة.

مما سبق يتبين لنا أن هذه الخوانق قد أدت غايات متعددة، فبالإضافة إلى دورها الديني المتمثل في عبادة الله سبحانه وتعالى، فقد كان لها دور علمي يتمثل في الدروس العلمية التي كانت تلقى بها، ويشارك فيها أجلاء العلماء، ويحضرها مئات الطلبة، كما كان لها دور تربوي أيضاً حيث يربى فيها الناشئة والأطفال، ويتعلمون كتاب الله تعالى والخط والكتابة، كما كانت هذه الخوانق مؤسسات اجتماعية خيرية، تعنى بالفقراء، وتوفر لهم المسكن والملبس والطعام والشراب والعلاج والحياة الكريمة بالإضافة إلى العلم. وقد كانت خانقاه سرياقوس نموذجاً لهذه المؤسسات الخيرية، بما يقدم فيها من خدمات للمقيمين فيها، فقد كان يصرف فيها للصوفي في اليوم رطل من لحم الضأن قد طبخ في طعم شهي، ومن الخبز النقي أربعة أرطال، ويصرف له في كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضة عنها ديناران، ورطل حلوى، ورطلان زيتاً من

زيت الزيتون ومثل ذلك من الصابون، ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة، وتوسعة في كل شهر رمضان وفي العيدين وفي مواسم رجب وشعبان وعاشوراء، وكلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها، وجعلت بها خزانة بها السكر والأشربة والأدوية، وجماعة من الأطباء: طبائعي وجراحي وكحال، بالإضافة إلى مصلح للشعر وحمام"[94]. وفي هذا يقول أستاذنا الدكتور عبد الجليل: "وأما الخوانق فقد قامت بدورها في الحركة الفكرية، كما كانت تقوم بدور ديني واجتماعي، وكانت مراكز عبادة وعلم كغيرها من المؤسسات الدينية الإسلامية"[95].

وأما الربط، فكانت أيضاً مراكز عبادة بالإضافة إلى مراكز علم، فقد قرر الملك الأشرف شعبان في رباط الآثار درساً للفقهاء الشافعية، وجعل له مدرساً، وعنده عدة من الطلبة، كما كان في هذا الرباط خزانة كتب"[96]. ومنها أيضاً رباط الأفرم الذي أنشأه الأمير عز الدين أيبك الأفرم، ورتب فيه صوفية وشيخاً وإماماً، يخطب عليه للجمعة والعيدين"[97]. وقد شارك كبار العلماء في التدريس بهذه الربط، أذكر منهم: محمد بن أحمد بن سحمان الوائلي المعروف بالشرشي سنة 685، الذي أتقن العربية والأصول والتفسير، ودرس بالرباط الناصري[98].

وأما الزوايا فقد كانت كثيرة، ساهم في بنائها السلاطين والأمراء والعلماء، ووقفت على المشايخ والصوفية، أذكر منها: زاوية بناها السلطان الظاهر بيبرس، ووقفها لشيخه خضر بن أبي بكر المهراني العدوي[99]، ووقف الناصر محمد بن قلاوون زاوية للشيخ تقي الدين رجب بن أشيرك العجمي[100]، وأخرى برسم الشيخين الأخوين محمد وأحمد المعروفين بالطراطرية[101]، وأنشأ الأمير ناصر الدين محمد ويدعى طيقوش ابن الأمير فخر الدين الطنبغا الحمصي زاوية ورتب بها عشرة من الفقراء شيخهم منهم[102]، وبنى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن معضاد بن شداد الجعبري الواعظ زاوية، كان يجلس فيها للوعظ، فتجتمع إليه الناس ويذكرهم، وكان هذا الشيخ يروي الحديث، ويشارك في علم الطب وغيره من العلوم، فكان الناس يجتمعون إليه، وينتفعون من علمه[103].

وبالإضافة إلى الربط والزوايا، فقد كانت الترب التي أنشأها السلاطين والأمراء لتكون مقابر لهم، كانت مراكز علم يقرأ فيها كتاب الله ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى الدروس التي كانت تلقى بها، فقد أنشأ الظاهر بيبرس في تربته مدرستين: شافعية وحنفية، ورتب في كل مدرسة مدرساً[104]، ولم يكن هؤلاء المدرسون من الطبقة الدنيا، بل كانون من علية المدرسين وأجلائهم، ومشايخ العلم، فقد كان جمال الدين بن مالك النحوي قد أقام بدمشق يصنف ويشتغل، وتصدر بالتربة العادلية، وبالجامع المعمور"[105]. من ذلك نتبين أن هذا الربط والزوايا والترب كان لها

وظائف علمية واجتماعية، بالإضافة إلى وظيفتها الدينية، فهي أماكن للعبادة أولاً، وأماكن تلقى فيها الدروس العلمية من مختلف التخصصات، بالإضافة إلى إيوائها للفقراء(106).

ولم يقتصر وجود هذه المؤسسات على القاهرة فحسب من الديار المصرية، بل انتشرت في مختلف حواضرها، ويدل على ذلك قول ابن بطوطة: "وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر لطائفة من الفقراء، وهم أهل أدب ومعرفة بطرائق التصوف"(107). وكما انتشرت هذه المؤسسات في الديار المصرية، فقد انتشرت في حواضر الشام أيضاً، فقد كان في دمشق مثلاً من الخوانق ما يزيد على خمس وعشرين، ومن الرباطات ما يقارب العشرين، ومن الزوايا ما يزيد على ذلك(108).

ومن أشهر هذه المؤسسات في دمشق: الخانقاه السميساطية، وهي منسوبة للسميساطي أبي القاسم علي بن محمد من أكابر الرؤساء بدمشق، وقد تولى النظر فيها مجموعة من المشايخ الأجلاء حتى عام 788هـ(109)، ومن الربط: الرباط التكريتي لصاحبه التاجر وجيه الدين محمد بن علبي التكريتي(110)، ومن الزوايا: الزاوية السيوفية لصاحبها نجم الدين عيسى بن شاه أرمن الرومي السيوفي(111)، ومن الترب: التربة الأفريدونية لواقفها التاجر شمس الدين أفريدون العجمي، وكان بها دار قرآن(112).

وكان في بيت المقدس عدد كبير من هذه المؤسسات، تحدث أستاذنا الدكتور عبد الجليل عنها، وعن دورها بالتفصيل(113). وكان في طرابلس أيضاً: مدارس وزوايا وخوانق لا يعلم بانيها ولا زمن بنائها(114)، كما كان في الخليل رباط خليل الرحمن أنشأه قلاوون(115)، وفي بعلبك الخانقاه النجمية(116).

مما سبق، يتبين لنا كثرة مراكز العلم في مصر والشام في العصر المملوكي الأول وتعددها، ويحاول بعض الباحثين تعليل ذلك بتلك "الظروف الخاصة التي تميزت بها طبيعة الحكم المملوكي القائم على الغلبة وعدم احترام نظام ولاية العهد الوراثي، وكثرة الانقلابات والمنازعات على الحكم من جانب المماليك، الأمر الذي جعل ثروات السلاطين والأمراء ومصائر ذرياتهم وأولادهم مهددة بأشد الأخطار إذا دهمهم الموت، أو أفلتت من أيديهم أزمة الحكم"(117)، ويستند الباحث في إثبات رأيه إلى رأي ابن خلدون في ذلك إذ يقول: "ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم وإنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم، وأكثر ذلك فيها، وحفظه، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين

بن أيوب وهلم جرا، وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شريكاً لولدهم، ينظر عليها، أو يصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلم، وزخرت بحارها(118).

فقول ابن خلدون هذا، لا ينفي عن مقصد المماليك من إنشاء هذه المراكز، وهو رغبتهم في فعل الخير والتماس الأجر من الله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى ما تقدم، فإذا ما قتل سلطان أو أمير صودرت أمواله، ولا يبقى له إلا تخليد ذكراه بهذه المؤسسات الخيرية الخالدة، وغالباً ما يجعلون النظر عليها إلى مواليهم وعتقائهم تأميناً لهم من عاديات الزمن، لأن النظر على هذه المؤسسات يكون مشروطاً بشروط الواقف، ذلك أنه لما أنشأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون المدرسة والقبة المنصورية، رتب القاضي زين الدين المالكي ناظر الأوقاف السلطانية كتاب وقف، جعل النظر فيه على وقف المدرسة والقبة لنفسه أيام حياته، فضاق بذلك شهاب الدين أحمد بن عبادة، وكان ممن يعملون في الديوان الناصري، فأوضح للسلطان أمر الوقف، وبينه له، وقال: "إن قاضي القضاة إنما جعل هذا لنفسه وأولاده وذريته، ولم يجعل للسلطان ولا لعتقائه في ذلك شيئاً، وحسن للسلطان تغيير كتاب الوقف، وأن يجعل النظر فيه لعتيقة الطواش شجاع الدين عنبر اللالا، ومن بعده للأمثل فالأمثل من عتقاء الواقف ثم عتقاء والده... وجعل له أن يتناول من ريع الوقف المذكور في كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده في كل شهر مائتي درهم"(119).

إذن، هذان سببان لازدهار حركة بناء المدارس ومراكز العلم في العصر المملوكي الأول، وأضيف إلى ذلك أن المماليك يريدون إثبات أنهم ليسوا بأقل من سابقيهم في هذا المجال، فهم أيضاً ورثة الإسلام وحماته والداعون إليه، والمدافعون عن حماه ضد الأعداء من الصليبيين والمغول.

هذه المراكز العلمية التي تحدثت عنها، إنما تشكل الحلقة الثانية من حلقات العلم في ذلك العصر، أما الحلقة الأولى فتتمثل في الكتّاب، حيث يتلقى الصبية حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، بالإضافة إلى تعليمهم القراءة والكتابة، وكان الكثير من هذه الكتاتيب ملحقة بالمدارس أو

الخوانق. فقد ألحق بمدرسة المنصور قلاوون مكتب سبيل، فيه معلمان يقرئان الأيتام(120) وإلى جانب المدرسة الحجازية التي أنشأتها الست الجليلة خوند الحجازية، مكتب سبيل، فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم(121)، وإلى جانب المدرسة القراسنقرية التي أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري، مكتب لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز(122)، وكذلك بجانب المدرسة البوبكرية(123)، والمدرسة السابقية(124) والمدرسة المسلمية(125).

كما ألحق ببعض الخوانق بعض من هذه المكاتب، مثل خانقاه الأمير سيف الدين الجيبغا المظفري(126)، بالإضافة إلى المكاتب التي ألحقت بالجوامع مما سنتحدث عنه.

أما الحلقة الثالثة في سلسلة طلب العلم، فتتمثل في المساجد والجوامع، تلك المؤسسات العلمية الكبرى التي لمع ذكرها في حواضر مصر والشام، وأول هذه المعاهد والجامعات، الجامع العتيق بمصر، أو جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، فقد كان هذا الجامع بحق جامعة إسلامية كبرى، فقد نقل المقريزي عن شهاب الدين أحمد بن عبد الله الأوحدي عن المؤرخ ناصر الدين بن الفرات عن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفي، أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه"(127) وهذا القول يدلل على ازدهار حركة العلم في هذا المسجد، إذ إن ذلك يعني أنه يزخر بطلاب العلم وحلقاته على مدار الساعة، كما يذكر أنه كان في هذا الجامع عدة زوايا يدرس فيها الفقه منها: زاوية الإمام الشافعي التي يتولى التدريس فيها أعيان الفقهاء وجلة العلماء، والزاوية المجدية التي يعد تدريسها من المناصب الجليلة، والزاوية الصاحبية ولها مدرسان أحدهما مالكي والآخر شافعي، والزاوية الكمالية والتاجية والمعينية والعلائية والزينية، والزاويتان الأخيرتان كانت لقراءة ميعاد(128)، أظنه للقرآن أو الحديث.

وثاني هذه المعاهد الكبرى جامع ابن طولون، فإنه عندما تولى السلطان حسام الدين لاجين، عهد إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري بعمارة الجامع على نفقته الخاصة، وبعد أن تم له ذلك، رتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرساً يلقى فيه تفسير القرآن الكريم، ودرساً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، ودرساً للطب، كما عمل بجواره مكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل(129).

وفي سنة 767هـ جدد الأمير يلبغا العمري بجامع ابن طولون درساً للحنفية فيه سبعة مدرسين(130).

أما الجامع الأزهر، فقد كان معهداً علمياً يزخر بالعلم والعلماء، ويؤمه الطلاب، فقد عمل الأمير بيلبك الخازندار فيه مقصورة كبيرة، رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعي، كما رتب فيها محدثاً يسمع الحديث النبوي، وسبعة لقراءة القرآن الكريم، كما رتب فيه مدرساً، ثم جددت عمارته سنة 761هـ على يد الأمير سعد الدين بشير الجامدار الناصري، ورتب فيه مصحفاً وجعل له قارئاً، كما أقر فيه درساً للفقهاء من الحنفية، يجلس مدرسهم لإلقاء الفقه في المحراب الكبير[131]، كما أنشأ على باب الجامع القبلي حانوتاً لتسبيل الماء العذب، وعمل فوقه مكتب سبيل لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز"[132].

ويبين المقريزي ما في هذا الجامع من حركة علمية زاخرة فيقول: "ولم يزل في هذا الجامع منذ بني عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالغة وأهل ريف مصر ومغاربة، ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم: الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات ولا سيما في المواسم"[133].

ومن هذه المعاهد العلمية بمصر جامع الحاكم، "فبعد الزلزلة التي أصابت مصر عام 702هـ انتدب الأمير بيبرس الجاشنكير لعمارته، وبعد أن تم له ذلك رتب فيه دروساً أربعة، لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودرساً لإقراء الحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة، كما كان فيه درس للنحو حيث رتب فيه الشيخ أثير الدين أبا حيان، وهناك درس القراءات السبع للشيخ نور الدين الشطنوفي، وتصدر لإفادة العلوم فيه علاء الدين القونوي، وفي مشيخة الميعاد المجد عيسى بن الخشاب، كما جعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم، وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن، ومعلماً يقرئ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل"[134].

أما في دمشق، فقد كان الجامع الأموي الجامعة الإسلامية الكبرى التي تضم الكثير من حلقات الفقه والحديث والقراءات، بالإضافة إلى المدارس الملحقة به، ففيه "من الحلق للاشتغال بالعلوم الشريفة المصروف عليها من مال الصالح إحدى عشرة حلقة[135]، وكان فيه من حلق الحديث ثلاثة مواعيد، بالإضافة إلى ثلاث زوايا[136]، وفي الجامع أيضاً من الحلق المخصصة لقراءة القرآن الكريم مائة وعشرون حلقة، وكل من فيها له راتب على ديوان الجامع[137]، وأما

ما فيه من المدارس الملحقة به، فيذكر ابن شداد أن فيه ست مدارس[138]، بينما يجعلها النعيمي ثماني مدارس[139]، ويرجع الاختلاف إلى المدة الزمنية طبعاً.

ويفصل ابن فضل الله العمري ما في هذا الجامع من دروس، فيصف لنا فيه ثلاثة محاريب للمالكية والحنفية والحنابلة، ولكل من هذه المحاريب إمام ومؤذن، ووقف على كل محراب مدرساً وجماعة من الفقهاء كل طائفة في محرابها[140]، ثم يذكر أن في كل ركن من أركان المسجد مشهداً أطلق على كل منها اسم من أسماء الصحابة، فيذكر مثلاً مشهد عمر ويقول: به شيخ حديث وجماعة من العلماء يستمعون الحديث[141].

أما ابن بطوطة، فيصف وصف مشاهد ما في هذا المسجد من حلقات الدرس فيقول: "ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان، ويقرئهم، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره"[142].

أما المسجد الأقصى، فقد قامت بداخله وحوله حركة فكرية وعلمية نشطة، فقد أنشئت بداخله مدارس في العصر الأيوبي أشهرها: الفارسية والنحوية والناصرية التي جعلها الملك المعظم عيسى زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو[143]، كما أنشئت حول المسجد الأقصى إحدى وعشرون مدرسة مجاورة لسوره[144]، بالإضافة إلى ما كان في القدس من مدارس ومشاهد وزوايا غير ملاصقة للسور، ولكنها بالقرب منه فكانت هذه المراكز ثماني وعشرين مدرسة وزاوية ومشهداً[145]، أما ما كان في بيت المقدس من المدارس والزوايا غير قريبة من المسجد، فعددها ست عشرة مدرسة وزاوية[146]، فإذا لاحظنا ما بداخل المسجد الأقصى أو حوله مع المدارس والزوايا البعيدة عنه، نجد أن الحركة الفكرية والعلمية كانت تتركز في المسجد الأقصى وحوله، "فقد كان المسجد الأقصى بما قام فيه وفي ساحاته ومن حوله من مؤسسات علمية: مدارس ومكتبات ودور قرآن ودور حديث وزوايا وخوانق ورباطات كان عبارة عن معاهد علمية أو كليات أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية، وتدرس العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية والتاريخ وعلم الكلام والمنطق والعلوم الرياضية وغير ذلك من فنون العلم"[147].

وتأتي إلى جانب هذه المؤسسات في خدمة الحركة العلمية في مصر والشام: البيمارستانات وأشهرها: البيمارستان المنصوري الذي أنشأه الملك المنصور قلاوون، وقد وقف عليه وعلى

المدرسة التي بجواره عدداً من الضياع والأملاك والبساتين، وجعل لها في كل يوم من الرواتب نحو ألف دينار، وكان شرط وقفه "أن لا يمنع من دخوله من كان مريضاً أو رمداناً أو مبطوناً أو مجنوناً أو من به عاهة، ويقيم به إلى أن يبرأ أو يموت، ورتب لهم الأطبة والأشربة والمزاور والسكر حتى الخيار البلدي والتمرحنا والياسمين، كما أشرط على وقفه أن يحضر في كل ليلة أربعة من أرباب الآلات يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء، وأجرى عليهم الرواتب في كل شهر"[148].

فإلى جانب كون هذا البيمارستان مؤسسة صحية واجتماعية تعمل على رعاية المرضى وتأمين العناية الكافية لهم من طعام وشراب وعلاج، فإنها تعمل على ترفيههم أيضاً بإسماعهم الموسيقى، كما كان هذا المستشفى مستشفى تعليمياً حيث تلقى فيه دروس الطب النظرية، فجعل فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس الطب[149].

كما كان هناك درس للطب يلقى في جامع ابن طولون[150].

ويبدو أن مستشفيات الشام أيضاً لم تكن خلواً من هذه الدروس، فقد ذكر السيوطي أن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الجعفري الملقب بابن القويع قدم دمشق ودرس الطب بالمارستان[151].

وأما دور الكتب، فقد كثرت في مصر والشام في هذا العصر، حيث سار المماليك على نهج أسلافهم في ذلك، فقد أكثر الفاطميون والأيوبيون من إنشاء دور الكتب التي تضم الآلاف من الكتب والمؤلفات النادرة مثل خزانة القصر الفاطمي[152] ودار الحكمة[153]، ومكتبة جامع دمشق[154].

وأما في العصر المملوكي، فقد أكثر سلاطينهم وأمراؤهم أيضاً من إنشاء المدارس كما رأينا، وألحقوا بها خزائن الكتب، ومن هذه المدارس المدرسة الصاحبية البهائية إذ كان بها خزانة كتب جليلة[155]، والمدرسة الصاحبية[156]، والمدرسة المنصورية والقبة الملحقة بها، فقد كان بها خزانة كتب جليلة فيها عدة أحمال من الكتب في أنواع العلوم[157]، كما ألحق بالمدرسة الناصرية خزانة كتب جليلة[158]، وكذلك بالمدرسة الحجازية[159]، والمدرسة الطيبرسية[160]، والمدرسية المنكوتمرية[161]، والمدرسة الملكية[162]، والمدرسة السابقية[163]، ومدرسة إلجاي[164]، والمدرسة البشيرية[165].

وأما في بيت المقدس فكانت دار كتب المسجد الأقصى التي كانت تضم الكثير من المصاحف والكتب والمخطوطات التي وقفت عليها في العصرين الأيوبي والمملوكي[166]. وأما في دمشق،

فقد كان في الجامع الأموي عدة خزائن كتب، إذ كان في كل زاوية من زوايا المسجد مشهد يضم عدة خزائن كتب[167].

وبالإضافة إلى مكتبات المدارس والجوامع، ضمت الخوانق والزوايا والربط شيئاً من هذه المكتبات، إذ كان في رباط الآثار التي أنشأها الصاحب تاج الدين بن حنا خزانة كتب[168].

وكان للكتب بالقاهرة ودمشق سوق خاصة، "ومما يدل على ضخامة عدد ما بسوق دمشق من الكتب أن حريقاً نشب سنة 681هـ فأحرق لشمس الدين إبراهيم الجزري خمسة عشر ألف مجلد سوى الكراريس[169]، كما أصيب سوق الكتب في مصر بكارثة أيضاً، فقد شب حريق عظيم سنة 691هـ بقلعة الجبل في بعض خزائن الخاص، وأتلف شيئاً عظيماً من الذخائر والنفائس والكتب وغيره[170].

وخلاصة القول، كانت حواضر مصر والشام في العصر المملوكي الأول زاخرة بمراكز العلم على اختلاف أنواعها، حيث تشكلت الحياة العلمية لطالب العلم من ثلاث حلقات، يتوجه في أولاها إلى الكتاب حيث يحفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، ويتعلم الخط والكتابة، ويتوجه بعدها إلى الحلقة الثانية التي تتألف من المدارس أولاً، حيث وجد فيها التخصصات المختلفة من علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة وعلوم النحو والطب، ويوازي المدارس في هذه الحلقة الخوانق والزوايا والترب، حيث يتلقى الأيتام والطلبة الفقراء العلم، وقد تبين لنا أن هذه المراكز لم تقتصر وظيفتها على الناحية الدينية، بل كانت مؤسسات علمية تقدم العلم لطالبيه، كما كانت مؤسسات خيرية اجتماعية تعمل على إيواء الفقراء وتقدم لهم كل ما يحتاجونه من طعام وشراب وكساء ودواء.

أما الحلقة الثالثة، فتتمثل في الجوامع، التي تشكل بحق جامعات إسلامية كبرى،تعقد فيها حلقات العلم المتنوعة، ويحاضر فيها كبار العلماء والمشايخ في ذلك العصر، مما يكشف عن حركة علمية نشطة تولى السلاطين والأمراء والعلماء وأهل الخير الإنفاق عليها، ووقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، فقد كان وجود هذه المؤسسات واستمراريتها مرهوناً باستمرار الوقف، وما يدر به من دخل مهما كانت الدول والحكام.

كما تبين لنا أن هذه الحركة لم تكن مقتصرة على القاهرة ودمشق من حواضر مصر والشام، بل عمت معظم المدن والحواضر المشهورة في كلا القطرين، حيث كانت حلب وحماه وطرابلس والقدس وأسناو قوص وغيرها مراكز علمية مهمة خرجت لنا الكثير من مشايخ العصر وعلمائه في مختلف فنون العلم.

الهوامش:

1. بدائع الزهور: 295/1.
2. المصدر نفسه: 308/1.
3. خطط المقريزي: 378/2-379، وانظر: بدائع الزهور: 340/1.
4. النعيمي، الدارس، مكتبة الثقافة الدينية، 1988م: 348/1، وانظر: بدائع الزهور: 340/1، ومحمد كردعلي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، 1403هـ-1982م: 8/6.
5. خطط المقريزي: 380/2، وانظر: بدائع الزهور: 353/1.
6. المصدر نفسه: 380/2، وانظر: بدائع الزهور: 418/1.
7. بدائع الزهور: 559/1.
8. خطط المقريزي: 369/2.
9. المصدر نفسه: 383/2.
10. خطط المقريزي: 384/2، وانظر: بدائع الزهور: 504/1.
11. المصدر نفسه: 386/2.
12. المصدر نفسه: 387/2.
13. المصدر نفسه: 388/2.
14. المصدر نفسه: 390/2-391.
15. المصدر نفسه: 391/2.
16. المصدر نفسه: 312/2.
17. المصدر نفسه: 312/2.
18. المصدر نفسه: 398/2.
19. المصدر نفسه: 403/2-404.
20. المصدر نفسه: 382/2.
21. المصدر نفسه: 399/2-400.
22. المصدر نفسه: 394/2.
23. المصدر نفسه: 370/2-371.
24. خطط المقريزي: 391/2.
25. المصدر نفسه: 400/2.
26. المصدر نفسه: 397/2.
27. المصدر نفسه: 394/2.
28. المصدر نفسه: 371/2.

29. المصدر نفسه: 368/2.

30. المصدر نفسه: 369/2.

31. المصدر نفسه: 370/2.

32. رحلة ابن بطوطة: 56/1.

33. النعيمي، الدارس، 1/348، وخطط الشام: 81/6.

34. الدارس: 489/1، وخطط الشام: 89/6.

35. المصدر نفسه: 123/1، وخطط الشام: 74/6.

36. خطط الشام: 77/6.

37. الدارس: 441/1، وخطط الشام: 86/6.

38. المصدر نفسه: 600/1، المصدر نفسه: 95/6.

39. المصدر نفسه: 64/1، المصدر نفسه: 72/6.

40. المصدر نفسه: 114/1، المصدر نفسه: 74/6.

41. المصدر نفسه: 71/1، المصدر نفسه: 71/6.

42. المصدر نفسه: 96/1، المصدر نفسه: 73/6.

43. المصدر نفسه: 12/1، المصدر نفسه: 70/6.

44. المصدر نفسه: 128/1.

45. المصدر نفسه: 18/1، خطط الشام: 69/6-71.

46. المصدر نفسه: 19/1-22، خطط الشام: 69/6-71.

47. المصدر نفسه: 123/1-128.

48. انظر: المصدر نفسه: 129/1-472، والمصدر نفسه: 75/6-88.

49. انظر: الدارس: 473/1-650، و خطط الشام: 88/6-95.

50. انظر: المصدر نفسه: 3/2-28، و المصدر نفسه: 96/6.

51. انظر: المصدر نفسه: 29/2-126، و المصدر نفسه: 96/6-98.

52. انظر: المصدر نفسه: 127/2-138، و المصدر نفسه: 100/6-102.

53. محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1953م: 104.

54. د. عبد الجليل عبد المهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصر الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، 1400هـ-1980م: 67، وانظر: خطط الشام: 123/6.

55. انظر: المصدر نفسه: 67-70.

56. الأنس الجليل: 35/2، وخطط الشام: 117/6.

57. المصدر نفسه: 35/2، وخطط الشام: 117/6.

58. المصدر نفسه: 36/2، وخطط الشام: 118/6.

59. الأنس الجليل: 37/2، وخطط الشام: 118/6.

60. المصدر نفسه: 38/2، وخطط الشام: 119/6.

61. المصدر نفسه: 36/2، وخطط الشام: 118/6.

62. المصدر نفسه: 39/2، وخطط الشام: 120/6.

63. المصدر نفسه: 43/2، وخطط الشام: 6/121.

64. رحلة ابن بطوطة: 53/1.

65. المصدر نفسه: 66/1.

66. المصدر نفسه: 69/1.

67. المصدر نفسه: 70/1.

68. المصدر نفسه: 70/1.

69. المصدر نفسه: 70/1.

70. خطط الشام: 71/1.

71. المصدر نفسه: 113/6.

72. المصدر نفسه: 110/6.

73. المصدر نفسه: 110/6.

74. المصدر نفسه: 112/6.

75. رحلة ابن بطوطة: 87/1.

76. خطط الشام: 125/6، وانظر فيه بقية المدارس: 124/6-125.

77. المصدر نفسه: 125/6-127.

78. المصدر نفسه: 126/6.

79. المصدر نفسه: 126/6.

80. المصدر نفسه: 120/6.

81، 82، 83. المصدر نفسه: 127/6.

84. المصدر نفسه: 128/6.

85. خطط المقريزي: 414/2.

86. المصدر نفسه: 415/2.

87. المصدر نفسه: 416/2.

88. المصدر نفسه: 422/2.

89. انظر: النجوم الزاهرة: 179/9.

90. خطط المقريزي: 2/421.

91. المصدر نفسه: 2/421.

92. المصدر نفسه: 2/425.

93. انظر: المصدر نفسه: 2/426-427.

94. انظر: المصدر نفسه: 2/423-422.

95. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 78.

96. خطط المقريزي: 2/430.

97. المصدر نفسه: 2/430.

98. انظر: الوافي: 2/131، والسيوطي، بغية الوعاة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1326هـ. ص18.

99. انظر: خطط المقريزي: 2/430.

100. انظر: المصدر نفسه: 2/432.

101. انظر: المصدر نفسه: 2/432.

102. انظر: المصدر نفسه: 2/434.

103. انظر: المصدر نفسه: 2/434.

104. انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر: 266.

105. انظر: بغية الوعاة: 53.

106. انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 74-78.

107. رحلة ابن بطوطة: 1/56.

108. انظر: الدارس: 2/139-222.

109. انظر: المصدر نفسه: 2/151.

110. انظر: المصدر نفسه: 2/193.

111. انظر: المصدر نفسه: 2/202.

112. انظر: المصدر نفسه: 2/223.

113. انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 74-78، وقد ذكرها المقدسي في الأنس الجليل: 2/37-49.

114. انظر: المصدر نفسه: 6/127.

115. انظر: المصدر نفسه: 6/127.

116. انظر: خطط الشام: 6/127.

117. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى: 92.

118. مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، (بدون): 1/434.

119. السلوك: 1/1041، من الملاحق نقلاً عن"نهاية الأرب" للنويري.

120. خطط المقريزي: 2/407.

121. خطط المقريزي: 2/382.

122. المصدر نفسه: 2/388.

123. انظر: المصدر نفسه: 2/390-391.

124. انظر: المصدر نفسه: 2/393-394.

125. انظر: المصدر نفسه: 2/401.

126. انظر: المصدر نفسه: 2/421.

127. انظر: المصدر نفسه: 2/256.

128. انظر: المصدر نفسه: 2/255-256.

129. انظر: المصدر نفسه: 2/268.

130. انظر: المصدر نفسه: 2/369.

131. محيي الدين بن عبد الظاهر، الروض الزاهر، الرياض، 1396هـ-1976م: 277، وخطط المقريزي: 2/275-276.

132. خطط المقريزي: 2/276.

133. المصدر نفسه: 2/276.

134. المصدر نفسه: 2/278.

135. انظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة "تاريخ مدينة دمشق"، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1375هـ-1956م: وانظر: الدارس: 2/411.

136. انظر: الأعلاق الخطيرة: 85، والدارس: 2/412.

137. انظر: الأعلاق الخطيرة: 85.

138. انظر: الأعلاق الخطيرة: 84.

139. الدارس: 2/412.

140. مسالك الأبصار: 1/195.

141. المصدر نفسه: 1/196.

142. رحلة ابن بطوطة: 1/110.

143. انظر: الأنس الجليل: 2/33-34، والحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 92.

144. انظر: الأنس الجليل: 2/33-41، والحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 92-93.

145. انظر: المصدر نفسه: 2/41-46.

146. انظر: المصدر نفسه: 2/46-48.

147. الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 92.

148. بدائع الزهور: 353/1.

149. خطط المقريزي: 406/2.

150. انظر: خطط المقريزي: 286/2.

151. بغية الوعاة: 97.

152. انظر: خطط المقريزي: 405/1.

153. انظر: المصدر نفسه: 212/2.

154. أبو شامة المقدسي: ذيل الروضتين، دار الجيل، بيروت، 1947م: 159.

155. خطط المقريزي: 371/2.

156. المصدر نفسه: 371/2.

157. المصدر نفسه: 380/2.

158، 159. المصدر نفسه: 382/2.

160. المصدر نفسه: 383/2.

161. المصدر نفسه: 387/2.

162. المصدر نفسه: 392/2.

163. المصدر نفسه: 394/2.

164، 165. المصدر نفسه: 399/2.

166. انظر: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى: 267.

167. انظر: مسالك الأبصار: 196/1، وانظر: حول المكتبات في الشام: خطط الشام: 6/192-200.

168. خطط المقريزي: 423/2.

169. أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر، القاهرة: 86 نقلاً عن نهاية الأرب المخطوط: 29 ص128.

170. النجوم الزاهرة: 33/8.

الفصل الثالث

هجرة العلماء إلى مصر والشام

ومن العوامل التي ساهمت في دفع عجلة الحركة الفكرية والعلمية في مصر والشام في العصر المملوكي، ما أصاب بغداد من دمار وخراب نتيجة للغزو المغولي، وما كان يحدث في الأندلس من سقوط الممالك الإسلامية فيها الواحدة تلو الأخرى بيد الأسبان، إذ فر كثير من علماء هذين المصرين إلى القاهرة حيث ازدهار الحركة العلمية، وحيث يجدون المكان الملائم للإفادة من علمهم، فنجد الكثير من هؤلاء العلماء الذين رحلوا من بغداد بعد سقوطها، ولجأوا إلى مصر والشام واتخذوها دار إقامة، وتفاعلوا بالحركة العلمية فيها، وساهموا في إثراء المكتبة العربية بما ألفوا من مؤلفات، كما تخرج على أيديهم عدد من مشايخ العلم المشهورين، ففي مجال العلوم الدينية، نجد مساهمات القادمين من العراق في مختلف التخصصات، فقد اشتغلوا بالقراءات وعلومها والتفسير والحديث والفقه، وكانت مشاركاتهم في التأليف والتدريس وإشغال الطلبة في المدارس والجوامع، ففي علوم القراءات نجد "عبد الرحمن بن أحمد بن علي الواسطي الأصل البغدادي تقي الدين، نزيل القاهرة، قد تصدر للإقراء مدة وله "شرح الشاطبية"(1)، كما درس القراءات في جامع ابن طولون(2)، وفي هذا المجال يصادفنا أيضاً يوسف بن جامع بن أبي البركات أبو إسحق القفصي الضرير مقرئ بغداد، فقد كان عارفاً بالنحو واللغة، بصيراً بعلل القراءات متصدياً لإقرائها، دخل دمشق، وسمع من شيوخها، وله تصانيف في القراءات"(3)، وممن رحل إلى دمشق وأقرأ بها أحمد بن رجب السلامي الذي نشأ ببغداد، وسمع من مشايخها، ثم رحل إلى دمشق، للإقراء بها، وانتفع به الناس"(4).

وممن مهر في علم التفسير بخاصة، مع مشاركات في علوم الفقه وأصوله: علم الدين العراقي، عبد الكريم بن علي الأنصاري. "وأصله من وادي آش، رحل إلى العراق، ثم قدم مصر فسمي العراقي، وهو من المعدودين في علماء مصر، كانت له مشاركة في الفقه وأصوله والتفسير، أقرأ الناس مدة طويلة، ولي مشيخة التفسير بالمنصورية"(5)، حيث أملى كتاباً في تفسير القرآن مختصراً، وله اختصاص بتفسير الزمخشري(6)، وكان علم الدين هذا من العلماء الموسوعيين الذين أظهروا حماساً واضحاً للعلم وشغل الطلبة، حتى "إن معظم من بديار مصر قد اشتغل عليه، وكان لا يمل من الإقراء ولا يسأم، له معرفة بالحساب والكتابة، درس بالشريفية وبالمشهد الفقه"(7).

ومن الذين قدموا دمشق، وأفادوا بها في هذا المجال محمد بن الحسن الحسيني الواسطي حيث "اشتغل ببلاده، ثم قدم الشام وتميز وأفاد ودرس، وكان بارعاً في الفقه والأصول، وله تفسير كبير"(8).

كما ساهم القادمون من بغداد في علوم العربية، حيث نجد الإمام فخر الدين أبا طالب أحمد بن علي الكوفي المعروف بابن الفصيح، الذي كان عالماً فاضلاً، تصدر ببغداد لإقراء العربية، ثم قدم دمشق فأعاد ببعض مدارسها، وتصدى لشغل الطلبة والإفادة(9). وممن أفاد في هذا المجال بمصر، بهاء الدين أبو الرجاء النحوي سلامة بن سليمان الرقي، "وكان من كبار أئمة العربية، أقرأ جماعة بمصر"(10).

وممن جمع بين علوم الدين والعربية، وكان بحق من أصحاب الثقافة الموسوعية، جمال الدين السرمري العقيلي، يوسف بن محمد بن مسعود الحنبلي نزيل دمشق، حيث ولد بسر من رأى، وانتقل إلى بغداد، وبرع في العربية والفرائض، ويقال إن مصنفاته بلغت مائة، وإنها في نيف وعشرين علماً"(11)، ومؤلفاته تدل على ذلك بحق(12). وممن كانت له مثل هذه الثقافة الموسوعية، الشيخ عز الدين عبد العزيز بن أبي القاسم البابصري البغدادي الذي كان يعرف الفقه والنحو وأيام الناس(13).

ومن هؤلاء العلماء، من أفاد في مصر والشام معاً، بالإضافة إلى بغداد، ومن هؤلاء شمس الدين أبو المعالي محمد بن أبي بكر الفارسي الذي درس بالنظامية، ثم دخل دمشق فدرس بالغزالية، ثم توجه إلى الديار المصرية وولي بها مشيخة الشيوخ(14).

كما ساهم هؤلاء الوافدون في مجال الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هؤلاء الشيخ عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن البغدادي الواعظ المعروف بابن الخراط الذي جلس للوعظ بالجامع الأموي(15).

كما وفد إلى مصر والشام علماء من بلاد فارس، وكانت لهم مساهمات في إفادة الطلبة والتدريس والتأليف ومناظرة العلماء في مختلف العلوم، ومنهم شمس الدين الأصبهاني محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الذي "ولد بأصبهان، وأخذ عن علماء بلاده، ومهر في الفنون، وحج ودخل دمشق، فبهرت فضائله أهلها، وسمع كلامه ابن تيمية، فبالغ في تعظيمه، وقال: ما دخل البلاد مثله، وكان يلازم الجامع الأموي ليلاً ونهاراً، مكباً على التلاوة وتدريس الطلبة، وقد بلغت شهرته إلى حد أن طلب إلى مصر، فدرس بها، وبنى له قوصون الخانقاه المعروفة باسمه، ورتبه شيخاً بها، أما مؤلفاته فمتنوعة، وشاملة لعلوم التفسير والفقه وأصوله والعروض والمنطق والبديع.(16).

وممن كانت له مساهمات في علوم مختلفة، منها العلوم النقلية والعقلية من الوافدين من بلاد فارس تاج الدين الأردبيلي التبريزي، علي بن عبد الله"، دخل بغداد ومصر، أفتى وناظر، وتصدى لشغل الطلبة في أصناف العلم من: تفسير وفقه وأصول ونحو وبيان ومنطق وجدل وفرائض وحساب وجبر ومقابلة، ومعقول ومنقول، فانتفع الناس به(17)، وله مصنفات في أنواع العلوم السابقة(18).

هذه صورة سريعة عن مساهمات العلماء الذين وفدوا إلى مصر والشام من العراقين، وقد رأينا أن مشاركاتهم لم تقتصر على علم من العلوم، بل كانت شاملة لمختلف العلوم الدينية واللغوية والعقلية، وكان بعضهم من أصحاب الثقافة الموسوعية الذين أفادوا في كل هذه العلوم المجتمعة، وتركوا مصنفات فيها، كما بلغت شهرة بعضهم إلى حد أن استدعوا من الشام لتولي التدريس في أماكن خاصة في مصر. وقد تبين لنا حماس هؤلاء العلماء ورغبتهم الجادة في نشر العلم والإفادة، فقد رحل إليهم الطلبة، وتخرج بهم الفضلاء من العلماء، لا يسأمون ولا يملون التدريس والتأليف، وقد بلغت مصنفات بعضهم كما رأينا مائة مصنف، تنوعت في نيف وعشرين علماً، فقد كانت مصر والشام قبلة العلم التي يتجه إليها العلماء، حيث يجدون الحب والتقدير والمناخ الملائم لنشر العلم وإفادته للناس.

وأما الوافدون من الأندلس، فلم يكونوا أقل حظاً من العلم والشهرة من إخوانهم القادمين من العراق، فقد حملوا هم أيضاً أفانين العلم، ليضيئوا بها الطريق لمن شاء من طالبي العلم في مصر والشام، ولنحاول تتبع بعض آثارهم وفضلهم في ميادين العلم المختلفة.

ففي مجال العلوم الدينية، وعلوم العربية يقف علماً شامخاً الشيخ أبو حيان الغرناطي، محمد بن يوسف أثير الدين، حيث كان له اليد الطولى في التفسير والحديث واللغة والعربية وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم. يقول الصفدي: "لم أر في أشياخي أكثر اشتغالاً منه، لأني لم أره إلا وهو يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك، وله إقبال على الطلبة الأذكياء، وعنده تعظيم لهم"(19).

فمما يشير إلى اهتمامه بالعلم والتأليف والإشغال، أنه كان لا يرى إلا وهو يشغل وقته بما يفيده، أو يفيد غيره، وقد تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية، والإقراء بالجامع الأقمر"(20)، وأما مؤلفاته فكثيرة جداً، تشمل التفسير والقراءات والنحو والتصريف والحديث واللسانيات(21).

فشيخنا قد حصل علومه في الأندلس والمغرب والحجاز ومصر والعراق والشام، واستقر في القاهرة يصنف ويفيد الطلبة، وقد تخرج به أئمة من مشايخ مصر وعلمائهم.

ومن علماء التفسير الذين وفدوا إلى مصر، القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، أبو عبد الله الأنصاري، حيث توفى بمنية بني خصيب، وله تفسير في القرآن "سارت به الركبان، وهو تفسير عظيم في بابه"(22). ومن الذين أقامو بدمشق، ركن الدين بن القويع الذي ولد بتونس، ثم قدم دمشق، ودرس بالمنكو تمرية والناصرية، ودرس الطب بالمارستان، وصنف تفسير سورة "ق" بمجلد(23).

وأما في الحديث، فنجد أبا عبد الله التلمساني العجيسي محمد بن أحمد، الذي سمع الحديث ورحل إلى المشرق، وبلغت شيوخه ألفي شيخ، كان منزله غاصاً بالطلبة، قدم القاهرة فأكرمه الأشرف شعبان، ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية(24). وأما في القراءات، فنجد محمد بن أحمد بن الموفق، أبا القاسم علم الدين الأندلسي اللورقي "الذي اشتغل بالقراءات والنحو والعربية وبرع في ذلك، وله مصنفات"(25). وقد ولي مشيخة الإقراء والنحو بالعادلية، وهو شيخ القراء بالشام(26).

وأما في النحو وعلوم العربية، فبالإضافة إلى أبي حيان الآنف الذكر، يصادفنا جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك نزيل دمشق، حيث تصدر لإقراء العربية، وكان إماماً في القراءات وعللها، وقد أقام في دمشق مدة يصنف ويدرس في الجامع والتربة العادلية، وتخرج به جماعة(27)، وأما النحو والتصريف، فكان فيهما بحراً لا يجارى، وحبراً لا يبارى"(28)، وقد صنف مجموعة من المؤلفات في النحو والصرف واللغة والقراءات(29).

ولولده محمد بن محمد بن عبد الله، بدر الدين بن مالك شهرة واسعة في علوم النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والمنطق والفقه والأصول، تصدى للأشغال والتصنيف، وله مؤلفات في هذه المجالات(30).

ومن أئمة النحو في الديار المصرية، جمال الدين الشريشي، محمد بن أحمد بن عبد الله، أبو بكر الوائلي، الذي "ولد بشريش، وتفقه وبرع في المذهب، وأتقن العربية والأصول والتفسير، ودرس وأفتى وأقرأ الحديث، ودرس بالرباط الناصري، وكان من أوعية العلم، وله مصنفات في هذه المجالات(31).

ومن علماء اللغة الوافدين الذين كان لهم أثر واضح في النهضة العلمية والأدبية في مصر والشام، العلامة ابن منظور محمد بن مكرم صاحب لسان العرب، الذي أسهم إسهاماً واضحاً في النهضة العلمية، حيث اختصر كثيراً من الكتب، وفي ذلك يقول الصفدي: "ما أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره، فمما اختصره: كتاب" الأغاني"، و"زهرة الأداب" و"الحيوان"

و"اليتيمة" و"الذخيرة" و"نشوار المحاضرة"(32)، وينقل الصفدي عن ولده قطب الدين بن المكرم أن والده ترك بخطه خمسمائة مجلد(33)، كما كان ابن منظور أيضاً متقدماً في ديوان الإنشاء بمصر(34).

وممن أسهم في النهضة الأدبية في مصر والشام، أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني شهاب الدين بن أبي حجلة، "حيث ولد بتلمسان، واشتغل، ثم قدم إلى الحج، ونزل دمشق ثم القاهرة، ومهر في الأدب، ونظم الكثير ونثر، ففاق وعمل المقامات وغيرها، وله مؤلفات أدبية مشهورة(35).

وممن كان له إسهام في الحركة الأدبية في المغرب والمشرق ابن سعيد الغرناطي، علي بن موسى الأديب الإخباري الشهير، جال في الديار المصرية والعراق والشام، وله مصنفات أدبية أشهرها: "المغرب في أخبار المغرب"، و"المشرق في أخبار المشرق" و"ملوك الشعر"، و"الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة" وغيرها(36).

مما تقدم، يتبين لنا أن وافدي المغرب والأندلس قد ساهموا مساهمة نشطة في الحركة العلمية والفكرية والأدبية في مصر والشام، فقد اشتغلوا بالعلم والتعليم والتصنيف، كانوا ممن يرحل إليهم الطلبة، وقد تخرج على أيديهم خيرة من العلماء في هذين القطرين، كما أغنوا المكتبة العربية بمصنفات لا يسد غيرها مكانها، كمؤلفات أبي حيان وابن مالك وابن منظور...، وقد تمتع هؤلاء العلماء بحب العلم وحب العمل مما جعلهم يصلون الليل بالنهار، كما كان منهم من يتمتع بثقافة موسوعية تجعله يشارك في فنون العلم المختلفة.

ولم تكن مصر والشام مركز جذب للعلماء الوافدين من العراق والأندلس فحسب، بل كانتا ملتقى العلماء من مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فهذا ضياء بن سعد بن محمد القزويني، الشيخ ضياء الدين العفيفي، أحد العلماء الأكابر، حيث تفقه في بلاده، وسمع الحديث، وتقدم في العلم، قدم القاهرة، واستقر في تدريس الشافعية بالشيخونية ومشيخة البيبرسية، وكان ممن يحسن إلى الطلبة بجاهه وماله مع الدين المتين والتواضع الزائد، وكان لا يمل الاشتغال حتى في حال مشيه وركوبه"(37)، وكان إماماً عالماً بالتفسير والرواية والمعاني والبيان والفقه والأصلين"(38).

فشيخنا هذا كان متفنناً في هذه العلوم الدينية واللغوية، حريصاً على الاشتغال والإفادة في كل وقته، يحسن إلى الطلبة ولا يبخل عليهم بعلمه ومكانته وماله.

وممن قدم دمشق من بلاد الروم أيضاً، قاضي القضاة جلال الدين القزويني الذي "تلقى العلم والفقه حتى ولي القضاء بناحية الروم، ثم قدم دمشق واشتغل بالفنون، وأتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان، وولي خطابة الجامع في دمشق، وبلغت سمعته إلى حد أن طلبه الناصر وولاه القضاء بمصر، ثم أعيد قاضياً إلى دمشق، ومصنفاته في المعاني والبيان مشهورة أهمها: "التلخيص" و"إيضاح التلخيص"(39).

كما قدم إلى مصر والشام بعض من علماء اليمن منهم: تاج الدين اليمني المخزومي عبد الباقي بن عبد المجيد، حيث ورد إلى الشام، وأقام بها متصدراً بالجامع، يقرئ الطلبة العروض والمقامات الحريرية، ورتب له أمير الشام راتباً، ثم عاد إلى اليمن، ومنها إلى مكة ومصر حيث درس بالمشهد النفيسي، ثم استوطن بيت المقدس مدة، وتردد بين حلب ودمشق وطرابلس ومصر إلى أن توفي، وله مجموعة من المؤلفات(40).

وقدم إلى الشام، من الهند، الشيخ صفي الدين الهندي، محمد بن عبد الرحمن الأرموي، الذي ولد بالهند، وتفقه هناك، ثم قدم دمشق، ودرس بالظاهرية والأتابكية، وأقرأ الأصول والمعقول، وله مؤلفات(41).

مما سبق، يتبين لنا أن مصر والشام كانتا في العصر المملوكي الأول محط أنظار العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فقد وفد إليهما علماء من العراقين والمغرب والأندلس وبلاد الروم والقرم والهند واليمن، وقد لعب هؤلاء العلماء دوراً قوياً في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية، وقد تخرج على أيديهم جلة العلماء، وأغنوا المكتبة العربية بالمؤلفات القيمة في شتى فنون العلم والمعرفة، وما كان التقاء العلماء هذا ليثمر عن شئ لولا الرغبة الأكيدة الصادقة لدى طالبي العلم، ولولا البيئة العلمية التي توافرت في مصر والشام في هذه الفترة، فأنى اتجهت تجد دور العلم، وحيثما ذهبت تجد هؤلاء العلماء يلاقون التشجيع والإكرام الذي يدفعهم إلى بذل المزيد من العطاء، فيصلون ليلهم بنهارهم في التصنيف وإفادة الطلبة، وما كانت مصر والشام بطبيعة الحال، في تلك الفترة خلواً من العلماء الأفذاذ في مختلف فنون العلم والمعرفة، وقد أسهم هؤلاء الوافدون مع إخوانهم في هذه البلاد في دفع حركة العلم دفعة قوية، ما زلنا نحن في عصرنا الحاضر نجتر ثمارها، فما الذي أثمرت عنه هذه الحركة...؟ هذا ما سنحاول إلقاء الضوء عليه في الصفحات التالية.

الهوامش:

1. بغية الوعاة: 296.
2. ابن حجر، إنباء الغمر، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، 1387هـ-1967م: 316/1.
3. بغية الوعاة: 421.
4. إنباء الغمر: 42/1.
5. السيوطي: حسن المحاضرة: مطبعة الموسوعات، القاهرة، 1321هـ: 1/197.
6. الصفدي، نكت الهميان: 195.
7. المصدر نفسه: 195.
8. إنباء الغمر: 128/1.
9. ابن حبيب، تذكرة النبيه: 183/3.
10. بغية الوعاة: 259.
11، 12. إنباء الغمر: 150/1.
13. تذكرة النبيه: 208/1.
14. المصدر نفسه: 209/1.
15. المصدر نفسه: 90/2، 185.
16. المصدر نفسه: 150/2، وانظر: بغية الوعاة: 388، والبدر الطالع: 298/2.
17. تذكرة النبيه: 89/3.
18. بغية الوعاة: 339.
19. الوافي بالوفيات: 267/5.
20. المصدر نفسه: 268/5.
21. انظر: الوافي: 280/5-281.
22. الوافي: 122/2.
23. بغية الوعاة: 97.
24. المصدر نفسه: 18.
25. الوافي: 102/2.
26. الذهبي، العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت: 303/3.
27. الوافي: 359/3.
28. بغية الوعاة: 53.
29. انظر مؤلفاته في: فوات الوفيات: 3/407.

30. انظر: الوافي: 204/1.

31. المصدر نفسه: 131/2.

32. الوافي: 54/5.

33. نكت الهميان: 276.

34. المصدر نفسه: 54/5.

35. إنباء الغمر: 108/1.

36. ابن شاكر الكتبي، فوات الوافيات، دار صادر، بيروت، 1974م: 103/3.

37. إنباء الغمر: 282/1.

38. بغية الوعاة: 270.

39. المصدر نفسه: 66.

40. فوات الوفيات: 246/2.

41. الوافي بالوفيات: 239/3.

الباب الثاني 2

مظاهر حركة التأليف العلمي
في مصر والشام
في العصر المملوكي الأول

لقد أثمرت جهود العلماء، نتيجة للعوامل السابقة التي تحدثنا عنها، عن حركة تأليف وتصنيف في فنون العلم المعروفة كافة في ذلك الوقت، وسوف نحاول الكشف عن جهود العلماء واتجاهاتهم في كل مجال من هذه المجالات.

الفصل الأول

علم القراءات

اهتم علماء القراءات في العصر المملوكي الأول بمؤلَّفيْن كان لهما أثر في توجيه حركة التأليف في هذا العلم:

الأول: كتاب"التيسير" لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ت(444هـ)[1].

والثاني: القصيدة المعروفة بالشاطبية، وهي من نظم القاسم بن فيرة بن خلف الرعيني الشاطبي ت(590هـ)، وعنوانها: "حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع للسبع المثاني"، حيث نظم فيها الشاطبي كتاب "التيسير" السابق[2].

أما كتاب "التيسير" فقد لقي اهتماماً بارزاً لدى علماء هذا العصر، فشرحه عدد من العلماء منهم على سبيل المثال: شمس الدين الحنبلي، محمد بن أحمد[3]، وأبو حيان الغرناطي[4]، وبدر الدين حسن بن قاسم المرادي[5] وشهاب الدين أحمد بن سعد الأندرشي[6] وشهاب الدين أحمد بن يوسف المعروف بابن السمين[7] وجمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام النحوي[8] وعبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل الحلبي[9] ومحب الدين محمد بن يوسف الحلبي[10].

وأما "الشاطبية"، فقد شرحها كل من: شمس الدين محمد بن أحمد الموصلي[11]، وسمى شرحه: "كنز المعاني في شرح حرز الأماني"[12] وعلم الدين القاسم بن أحمد اللورقي[13] وسمى شرحه: "المفيد في شرح القصيد"[14]، كما شرحها أبو شامة المقدسي في مجلدين، وسمى شرحه: "إبراز المعاني من حرز الأماني"[15]، وشرحها عماد الدين علي بن يعقوب الموصلي في أربع مجلدات[16]، وأحمد بن محمد بن جبارة شمس الدين المقدسي، وشرحه مطول(17)، وكذلك الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري[18] في شرح مشهور سماه "كنز المعاني"[19]، وشرحها شرف الدين الحموي البارزي[20]، وشهاب الدين السمين[21]، وعبد الرحمن بن أحمد الواسطي[22].

وقد نظم عدد من علماء هذا العصر منظومات على غرار الشاطبية، منها مختصرات لها، ومنها تتمات لها، وأشهر هؤلاء جمال الدين بن مالك الذي صنف في القراءات قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية[23]، ويعقوب بن بدران المعروف بالجرايدي الذي نظم رموز الشاطبية[24].

وممن حاول تكملتها، أبو الحسن علي بن إبراهيم الفيجاطي[25]، وممن حاول اختصارها: أمين الدين عبد الوهاب بن احمد الدمشقي الحنفي[26].

كما نظم بعضهم قصائد تشابهها، منهم: فخر الدين بن المنير المالكي الذي نظم أرجوزة في القراءات السبع[27]، كما نظم أحمد بن علي الهمداني المعروف بابن الفصيح قصيدة أخرى في القراءات[28].

وشرحت قصيدة الشاطبي الثانية، وهي الرائية في الرسم القرآني، وقد نظم الشاطبي فيها كتاب "المقنع" لأبي عمرو الداني[29]، وقد شرحها أحمد بن محمد ابن جبارة المقدسي[30]، وبرهان الدين الجعبري[31].

ولم تقتصر كتب القراءات التي ألفت في هذا العصر على شروح "التيسير" و "الشاطبية" فحسب، بل ألفت كتب أخرى في ذلك منها: "مفردات القراء" لأبي شامة المقدسي[32]، وألف برهان الدين الجعبري كتابه "الشرعة في القراءات السبعة"[33]، و "عقود الجمان في تجويد القرآن" و "حدود الإتقان في تجويد القرآن"، وله أيضاً منظومة في الرسم سماها "روضة الطرائف"[34]، كما ألف في القراءات العشر كتابه "نزهة البررة في القراءات العشرة"[35].

وصنف شرف الدين هبة الله البارزي كتابه "السرعة في قراءات السبعة"[36]، وللشيخ أثير الدين أبي حيان مؤلف في كل قراءة من القراءات المعروفة مثل "النافع في قراءة نافع" و "الأثير في قراءة ابن كثير"، و "المورد الغمر في قراءة أبي عمرو" وهكذا ... وله "الحلل الحالية في أسانيد القراءة العالية"[37].

وعلى العموم، فقد امتاز قراء هذا العصر بثقافة موسوعية عالية، جمعت علوم هذا العصر، وأخص بالذكر هنا منهم: أبا شامة المقدسي وأبا حيان الغرناطي، وابن مالك، وبرهان الدين الجعبري، وإن ما أوردته المصادر من مصنفاتهم تشهد لهم بذلك.

الهوامش:

1. غاية النهاية، شمس الدين بن الجزري: مكتبة الخانجي بمصر، 1351هـ-1932م: 503/1، وانظر: مقدمة ابن خلدون: 437.
2. حاجي خليفة، كشف الظنون، الفيصلية، مكة المكرمة: 646، وانظر: مقدمة ابن خلدون: 438.
3. الوافي: 161/2.
4. المصدر نفسه: 267/5.
5. السيوطي، حسن المحاضرة: 257/1.
6. تذكرة النبيه: 137/3.
7. السلوك: 24/3.
8. بغية الوعاة: 293.
9. بغية الوعاة: 284.
10. إنباء الغمر: 225/1.
11. ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، 1372هـ- 1953م: 256/4.
12. كشف الظنون: 646.
13. العيني، عقد الجمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1408هـ-1988م: 368/1.
14. كشف الظنون: 648.
15. الوافي: 113/18، كشف الظنون: 646.
16. تذكرة النبيه: 83/1.
17. الوافي: 25/8.
18. الوافي: 73/6.
19. كشف الظنون: 646.
20. نكت الهميان: 302.
21. السلوك: 24/3.
22. إنباء الغمر: 316/1.
23. الوافي: 359/3.
24. غاية النهاية: 389/2.
25، 26. كشف الظنون: 649.
27. ملحق تاريخ أبي الفداء، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960م: 126/7.
28. بغية الوعاة: 147.

29. عاية النهاية: 20/2، ومقدمة ابن خلدون: 438.
30. الوافي: 25/8.
31. المصدر نفسه: 73/6.
32. المصدر نفسه: 113/18.
33. المصدر نفسه: 73/6.
34. فوات الوافيات: 39/1.
35. الأنس الجليل: 153/2.
36. تاريخ ابن الوردي: 319/2.
37. انظر مؤلفاته في: الوافي: 267/5.

الفصل الثاني

علم التفسير

حظي تفسير القرآن الكريم في العصر المملوكي الأول باهتمام العلماء، فقد خلف لنا علماء هذا العصر ما يزيد على خمسين تفسيراً، وقد اختلفت مناهجم وطرائقهم في تفسير القرآن الكريم، فمنهم من فسر القرآن الكريم بأكمله، ومن هؤلاء على سبيل المثال: سبط ابن الجوزي[1]، وعز الدين بن عبد السلام[2] وعبد الرزاق بن رزق الله الرسعني[3] والقرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر[4] وأحمد بن يوسف ابن الحسن الكواشي، وله تفسيران[5] وناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندراني[6] وبرهان الدين أحمد بن ناصر الحسيني[7] وزين الدين بن المنجا[8]وجمال الدين سليمان بن الحسن بن النقيب[9] والعلم العراقي عبد الكريم بن علي[10] والسيد محمد بن إدريس بن الناصر، وله عدة كتب في التفسير[11] وبدر الدين بن جماعة الحموي[12]، ونجم الدين هبة الله البارزي[13] وأبو حيان الغرناطي[14] وشمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني[15] وأبو العباس أحمد بن يوسف المعروف بابن السمين[16] وتقي الدين السبكي[17] ومحمد ابن علي الدكالي[18] وعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير[19] وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ[20]، وأكمل الدين محمد بن محمود البابرتي[21] وبرهان إبراهيم بن عبد الرحيم بن جماعة[22].

واقتصر بعض المفسرين على تفسير بعض السور من القرآن الكريم، وكتبوا في ذلك مجلدات، منهم على سبيل المثال: صدر الدين القونوي، وله تفسير سورة "الفاتحة" في مجلد[23]، ومثله إبراهيم بن أحمد الرقي[24]، ولابن تيمية تفسير سورة "المائدة" في مجلد لطيف، وتفسير سورة "يوسف" في مجلد كبير وسورة "النور"، وسورة "القلم" وسورة "لم يكن" وسورة "الكافرون" وسورة "تبت" و "المعوذتين" و "الإخلاص"، كل في مجلد[25]، ولإبراهيم بن جماعة تفسير سورة "الفاتحة" أيضاً سماه "الفوائد اللائحة من سورة الفاتحة"[26]، وفسر ابن القويع ركن الدين محمد بن محمد العنبري "سورة ق" في مجلد[27]، ولعلي بن الحسن المعروف بابن شيخ العوينة "تفسير بنج الحمد – وهو خمس سور من القرآن الكريم أول كل سورة الحمد"[28]، وفسر ابن قيم الجوزية سورة "الفاتحة "في مجلد كبير[29].

ومنهم من اقتصر على تفسير بعض الآيات من القرآن الكريم، ومن هؤلاء أبو شامة المقدسي، وله تفسير آية الإسراء "وكتاب البسملة"[30]، ولابن تيمية تفسير الاستعاذة والبسملة

و "إياك نعبد وإياك نستعين" وأوائل سورة البقرة وآية الكرسي... وغيره[31]، ولخليل بن كيكلدي العلائي "نزهة السفرة في تفسير خواتيم سورة البقرة"[32] وللحسن بن قاسم المرادي "شرح الاستعاذة والبسملة"[33]، ولشمس الدين محمد بن محمد الموصلي "غاية الإحسان في تفسير قوله تعالى" إن الله يأمر بالعدل والإحسان"[34].

ومنهم من اقتصر على تفسير بعض الآيات على طريقة المجالس، بحيث يكون تفسير كل منها في مجلس لا تزيد عليه، ومن هؤلاء عبد السلام بن أحمد عز الدين الأنصاري، وله تفسير آيات كل آية بمجلس ينتبه عليها ولا يخرج عن حكمها في أول المجلس إلى آخره[25]، وشمس الدين محمد بن محمد الموصلي وله: "بهجة المجالس ورونق المجالس" وهو في خمس مجلدات يتضمن الكلام على آيات كريمات[36]. ومنهم من اكتفى بتفسير أسماء الله الحسنى، ومنهم القرطبي في كتابه: "الأسنى في أسماء الله الحسنى"[37]، ونجم الدين القمولي في "شرح الأسماء الحسنى"[38]. ومنهم من اقتصر على تفسير أسماء القرآن، ومن هؤلاء ابن القيم الجوزية[39].

ومنهم من لجأ إلى تفسير غريب القرآن ومن هؤلاء: السيد محمد بن إدريس في "الحسام المرهف تفسير غريب المصحف"[40] وأبو حيان الغرناطي في "إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب"[41]. وعلاء الدين بن التركماني في "بهجة الأريب بما في الكتاب االعزيز من الغريب"(42).

وفسر بعضهم الآيات الناسخة والمنسوخة في القرآن الكريم، ومنهم محمد بن أحمد المعروف بشعلة[43].

كما شرح بعضهم آيات الأحكام والفرائض، ومن هؤلاء صلاح الدين خليل ابن كيكلدي العلائي في كتابه: "منحة الرائض بعلوم آيات الفرائض"[44].

ووضع بعضهم كتباً في بيان قواعد التفسير، ومنهم: نجم الدين سليمان بن عبد القويم الصرصري في كتابه: "الإكسير في قواعد التفسير"[45].

كما ألف بعضهم أرجوزة في التفسير، ومن هؤلاء: عز الدين عبد العزيز بن أحمد الديريني[46].

كما وضع بعضهم حواشي على كتب التفسير السابقة مثل: الحسين بن محمد الطيبي، وله حاشية على الكشاف، هي أنفس حواشيه مع بيان ما فيها من الكلام على الأحاديث في بعض

الحالات إذا اقتضى الحال، مما يدل على ارتفاع طبقته في علمي المعقول والمنقول[47]، كما تصدى ابن المنير الإسكندري للرد على صاحب "الكشاف" في كتابه: "الانتصاف من صاحب الكشاف"[48]، وقد انتصف لهما العلم العراقي في كتابه: "الإنصاف بين الزمخشري وابن المنير"[49].

والتقط بعض العلماء إعراب القرآن الكريم من تفسير أبي حيان المسمى "البحر المحيط"، ومنهم تاج الدين أحمد بن عبد القادر الحنفي في كتابه: "الدر اللقيط من البحر المحيط"[50].

أما اتجاهات المفسرين في هذا العصر، فنلاحظ أنها تتباين حسب ثقافات المفسرين، فمنهم من لجأ إلى طريقة التفسير بالمأثور كتفسير القرطبي وابن كثير، ومنهم من سيطر عليه الاتجاه اللغوي كتفسير أبي حيان، فلجأ بعضهم إلى استخراج إعراب للقرآن كاملاً من هذا التفسير، ومزج الحسين بن محمد الطيبي في حاشيته على الكشاف بين طريقتي المنقول والمعقول، وللشيخ صدر الدين القونوي تفسير لسورة الفاتحة على اصطلاح أهل التصوف سماه: "إعجاز البيان في تفسير أم القرآن"[51]، ولعل تفسير أحمد بن يوسف الكواشي ينحو منحى الصوفية في التفسير، إذ كانت ثقافته صوفية وله كشف وكرامات[52].

أما تباين هذه التفاسير من حيث حجمها، فقد تفاوتت بين التلخيص والتركيز وبين التوسع والتفصيل، فوصل بعضها إلى تسعة وتسعين مجلداً، حيث جمع فيه مصنفه خمسين مصنفاً من التفاسير[53]، كما ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والإعراب واللغات والحقائق وعلم الباطن[54]، كما جاء بعضها في تسعة وعشرين مجلداً[55]، وبعضها في عشرين سفراً كباراً[56]، في حين كان بعضها مختصراً جداً، فقد أملى علم الدين العراقي كتاباً في التفسير مختصراً جداً[57].

وعلى العموم، فقد كان تفسير القرآن الكريم في هذا العصر - كما رأينا - من العلوم المزدهرة، فلم تكن المؤلفات التي ألفت في هذا العصر عالة على ما ألف في عصور سابقة، بل على العكس من ذلك، رأينا أن بعض علماء التفسير يكتب تفسيراً مطولاً جداً، ويلتزم فيه أن لا ينقل حرفاً عن أحد[58]، مما يدل على قدرة علماء، هذا العصر وامتلاكهم لزمام هذا العلم.

الهوامش:

1. العبر: 274/3.
2. عقد الجمان: 338/1.
3. ذيل طبقات الحنابلة: 274/4.
4. الوافي: 122/2.
5. الوافي: 291/8.
6. فوات الوفيات: 149/1.
7. الوافي: 209/8.
8. تذكرة النبيه: 190/1.
9. الوافي: 136/3.
10. نكت الهميان: 195.
11. البدر الطالع: 126/2.
12. تذكرة النبيه: 236/2.
13. تاريخ ابن الوردي: 319/2.
14. الوافي: 267/5.
15. البدر الطالع: 298/2.
16. السلوك: 24/3.
17. الوافي: 253/21.
18. بغية الوعاة: 78.
19. إنباء الغمر: 45/1.
20. إنباء الغمر: 137/1.
21. بغية الوعاة: 103.
22. الأنس الجليل: 107/2.
23. الوافي: 2/200.
24. المصدر نفسه: 313/5.
25. الوافي: 7/23-24.
26. الأنس الجليل: 126/2.
27. الوافي: 238/1.
28. المصدر نفسه: 52/21.
29. الوافي: 270/2.

30. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، 1374هـ-1954م: 367/2.
31. الوافي: 23/7-24.
32. الوافي: 410/13.
33. بغية الوعاة: 226.
34. الوافي: 262/1.
35. ذيل مرآة الزمان: 13/4.
36. الوافي: 262/1.
37. الوافي: 122/2.
38. حسن المحاضرة: 198/1.
39. الوافي: 270/2.
40. البدر الطالع: 126/2.
41. الوافي: 267/5.
42. الوافي: 307/21.
43. ذيل طبقات الحنابلة: 256/4.
44. الوافي: 410/13.
45. ذيل طبقات الحنابلة: 366/4.
46. تذكرة النبيه: 130/1.
47. البدر الطالع: 299/1.
48. بغية الوعاة: 168.
49. حسن المحاضرة: 197/1.
50. الوافي: 74/7.
51. كشف الظنون: 455.
52. نكت الهميان: 116.
53. الأنس الجليل: 217/2.
54. فوات الوفيات: 283/3.
55. العبر: 274/3.
56. السلوك: 24/3.
57. نكت الهميان: 195.
58. بغية الوعاة: 78.

الفصل الثالث

علوم الحديث

كان حفظ الأحاديث ودراستها وشرحها من العلوم الأساسية التي يتلقاها كل طالب علم، وقد اختلفت طرق رواية الأحاديث وتلقيها من السماع بلفظ الشيخ إلى الإجازة إلى القراءة على الشيخ إلى المكاتبة إلى الوجادة ... وهكذا(1).

ولست هنا بصدد التفصيل في دراسة هذه المصطلحات أو توضيح مفاهيمها، ولكنني أقول: إن كثيراً من طرق التحمل والتلقي هذه كانت مستخدمة في تلقي الحديث في هذا العصر، وسأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة.

أما السماع من لفظ الشيخ والإجازة فكثير في هذا العصر، ويتمثل ذلك في قول ابن حبيب في خبر ورود المحدث شمس الدين محمد بن جابر الوادي آشي إلى حلب، يقول: "سمعت عليه مع جماعة من الحلبيين من لفظه جميع كتاب "الموطأ" ...وأجاز لنا ما يجوز له روايته بشروطه"(2).

وأما القراءة على الشيخ فقد وردت في ترجمة زين الدين عمر بن الحسن ابن حبيب الدمشقي: "كان حافظاً عارفاً بالحديث، رحل في طلبه، وسار إلى لقاء مشايخه المسندين، وقرأ عليهم، وسمع منهم كثيراً"(3).

وأما المكاتبة، فقد ورد لفظها في ترجمة شرف الدين الدمياطي: "وكتب عن جماعة من رفقائه"(4)...، وقد كان السماع عن الشيخ أكثر هذه الطرق شيوعاً، وأشدها توثيقاً أيضاً، وقد كثر في هذا العصر، فبلغ عدد مشايخ بعض علماء الحديث في هذا العصر أكثر من ألفي شيخ بالسماع، وألف شيخ بالإجازة، ومن هؤلاء علم الدين البرزالي الذي بلغ ثبته (معجم شيوخه) أربعة وعشرين مجلداً، أثبت فيه ما كان معه أيضاً(5)، ومن هؤلاء محمد بن أحمد العجيسي الذي بلغ عدد شيوخه ألفي شيخ(6)، وشرف الدين الدمياطي الذي بلغ عدد شيوخه ألفاً وثلاثمائة شيخ(7)، وصنف بعضهم معجم شيوخه بسبعة مجلدات(8)، وبعضهم بأربعة مجلدات(9).

وكانت الرحلة من أجل طلب الحديث سمة بارزة في هذا العصر، فقد سمع جمال الدين المزي مثلاً الحديث في الشام والحرمين ومصر وحلب والإسكندرية(10).

أما أشهر كتب الحديث التي كثر سماعها وروايتها في هذا العصر، فهي كتب الحديث الستة المشهورة[11]، وكان حظ الصحيحين من الحفظ والرواية في ذلك العصر وافراً[12]، كما حفظوا "موطأ مالك"[13]، و"السنن الكبير" للبيهقي[14] و "مسند الطيالسي" و "مسند الحميدي"[15]، كما حفظوا كثيراً من الأجزاء مثل "جزء ابن عرفة"[16] و "جزء البانياسي" و"الأربعين البلدانية" للسلفي[17] و "جزء ابن عيينة"، و "أربعين الثقفي"[18] وغيرها من كتب الحديث وأجزائها.

أما كتب الحديث التي ألفت في هذا العصر فكثيرة، وقد اختلفت مناهج العلماء في تأليفها وذلك حسب الموضوعات التي بحثوا فيها، ويمكن تقسيمها في ثلاثة اتجاهات: الأول منها يتعلق في علم مصطلح الحديث، والثاني يبحث في المتن، والثالث في السند.

أما ما يتعلق منها في علوم الحديث ومصطلحه فنوعان: الأول منها يتركز حول دراسات قديمة في هذا المجال شرحاً وتنظيماً ونظماً، فأشهر الكتب التي تناولها علماء العصر بالشرح والتلخيص هي: "مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث"، فممن اختصرها: محي الدين النووي[19] وعلاء الدين المارديني[20] وتاج الدين التبريزي[21]، وممن نظمه: شهاب الدين الخويي[22]، وقد شرح هذه الأرجوزة جمال الدين الشريشي[23].

أما النوع الثاني فهو مؤلفات جديدة في هذا المجال، وأشهرها كتابان لمحي الدين النووي هما "الإرشاد" و "التقريب" وكلاهما في علوم الحديث[24]. ولابن دقيق العيد كتابان أيضاً هما: "الاقتراح في مصطلح الحديث" و "أصول الحديث"[25]، ولبرهان الدين الجعبري كتاب "رسوم التحديث في علم الحديث"[26]، ولبدر الدين بن جماعة كتاب "المنهل الروي في علوم الحديث النبوي"[27]، وللشيخ علاء الدين ابن التركماني "المنتخب في علوم الحديث"[28].

أما الاتجاه الثاني من اتجاهات الكتب المؤلفة في الحديث في هذا العصر، فيبحث في متن الأحاديث، وفيها أكثر من منحى:

المنحى الأول: يتجه إلى شرح كتب الأحاديث السابقة، فقد شرحت كتب الحديث المشهورة، مثل "صحيح مسلم"[29] و "صحيح البخاري"[30] و "سنن أبي داود"[31] و "سنن الترمذي"[32] و"سنن النسائي"[33] و "سنن ابن ماجه"[34].

كما شرحت مجموعات أخرى مثل "مختصر ابن الحاجب"[35] و "الأربعين النووية"[36]، وشرح بعضهم أحاديث في موضوعات محددة مثل: "شرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى"

لأبي شامة[37]، وشرح بعضهم الآخر أحاديث الأحكام مثل: "قطر الغمام في شرح أحاديث الأحكام"[38]، كما ألف بعضهم شرحاً لأحاديث بعينها مثل : "مطرب السمع في حديث أم زرع"[39]، و "الفوائد الغزيرة في أحاديث بريرة"[40].

المنحنى الثاني: يتجه إلى اختصار كتب الحديث السابقة، فقد اختصر بعضهم "الصحيحين"[41]، و "سنن أبي داود"[42] و "سنن الترمذي"[43] و "سنن البيهقي"[44].

المنحنى الثالث: يذهب إلى تخريج الأحاديث وجمعها، فقد عمل بعضهم على إعادة ترتيب بعض كتب الحديث السابقة مثل: "ترتيب صحيح ابن حيان"[45]، كما جمع البعض الآخر شيئاً من كتب الحديث السابقة في كتاب واحد مثل: "الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن"، وقد جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى وابن أبي شيبة إلى الكتب الستة[46]، كما جمع قسم ثالث منهم: أحاديث ترتبط بموضوع معين مثل أحاديث الأحكام مثلاً منها: "الإلمام في أحاديث الأحكام"[47]، و "المنتقى من أحاديث الأحكام"[48]، وجمع قسم رابع بعض الأحاديث في موضوع محدد مثل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم[49])، وأحاديث مس الذكر[50]، "والأربعين الصحيحة فيما دون أجر المنيحة"[51]، و"الأربعين في أعمال المتقين"[52] و"الأربعين في الرواية عن رب العالمين"[53]، كما جمع قسم خامس منهم أحاديث ترتبط بعدد رواتها، فمنهم من جمع ثمانيات[54]، ومنهم من جمع تساعيات[55]، ومنهم من جمع أربعين حديثاً متباينات[56]، كما جمع قسم سادس منهم أربعين حديثاً في أربعين بلداً سماها البلدانيات[57]، وأخيراً فقد قام بعضهم بتخريج أحاديث استمدها من مؤلفات سابقة مثل تخريج أحاديث "الهداية" وأحاديث "الكشاف"[58].

وأما الاتجاه الثالث من اتجاهات كتب الحديث المؤلفة في هذا العصر، فتبحث في سند الأحاديث، وقد تعددت مناهجهم في هذا أيضاً:

فخرج بعضهم معجمات لمشايخه الذين روى عنهم، وقد ذكرت بعضهم في بداية بحث علم الحديث، كما جمع بعضهم الآخر تراجم لمن روى عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل: "الوشي المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم"[59]،

وجمع صنف ثالث من العلماء تراجم تختص بكتب معينة من كتب الحديث(60)، فجمعوا تراجم صحيح البخاري وأسماء الصحابة الذين ورد ذكرهم في الصحيحين(61)، كما جمع بعضهم الأسانيد الواردة في عشرة كتب من كتب الحديث سماه: "التذكرة في رجال العشرة"(62).

وألف صنف رابع منهم في سيرة الرجال حسب تعديلهم أو تجريحهم مثل: صلاح الدين العلائي في كتابه: "المدلسين"(63)، والذهبي في "المغني في الضعفاء" و "ميزان الاعتدال"(64)، وعلاء الدين بن التركماني في كتاب "الضعفاء والمتروكون"(65)، كما شرع محمد بن علي السروجي في جمع كتاب "الثقات"فكتب بعضه،ولو كمل لكان في أكثر من عشرين مجلداً(66)، وكتب عماد الدين بن كثير كتابه "التكميل في معرفة الضعفين والمجاهيل" في خمسة مجلدات(67).

وكتب صنف خامس منهم في سيرة الحفاظ الذين حفظوا الأحاديث ورووها ومن هؤلاء: شمس الدين الحنبلي في كتابه "العمدة في الحفاظ"(68) والذهبي في "طبقات الحفاظ"(69).

كما صنف قسم أخير منهم في من يشتبه باسمه مثل الذهبي في "المشتبه في الأسماء والأنساب"(70).

هذه نبذة موجزة عن علم الحديث في العصر المملوكي الأول، تبينا من خلالها أن هذا العلم كان من العلوم المزدهرة، فقد كثر المشتغلون فيه حفظة ورواة ومؤلفين، كما كثرت الكتب المؤلفة في هذا العلم، وتعددت اتجاهاتها.

الهوامش:

1. انظر: مقدمة ابن الصلاح، المطبعة العلمية، حلب، 1350هـ-1931م: 140-168، والسيوطي، تدريب الراوي، المكتبة العلمية، 1379هـ-1959م: 239-282.
2. تذكرة النبيه: 256/2.
3. المصدر نفسه: 165/2.
4. البدر الطالع: 403/1.
5. تذكرة النبيه: 301/2.
6. بغية الوعاة: 18.
7. السيوطي: طبقات الحفاظ، مكتبة وهبة، القاهرة، 1393هـ-1973م: 512.
8. ذيول العبر: 68/4.
9. إنباء الغمر: 59/1.
10. البدر الطالع: 352/2.
11. الوافي: 410/13.
12. انظر مثلاً: الوافي: 375/3، تذكرة النبيه: 263/3، وذيول العبر: 85/4، 172.
13. الوافي: 232/1، تذكرة النبيه: 82/2، 256، بغية الوعاة: 201.
14. الوافي: 354/3، ذيول العبر: 172/4.
15. ذيول العبر: 172/4.
16. تذكرة النبيه: 275/2.
17. المصدر نفسه: 275/2.
18. نكت الهميان: 215.
19. ذيل مرآة الزمان: 283/3.
20. حسن المحاضرة: 221/1.
21. بغية الوعاة: 339.
22. الوافي: 137/2.
23. تذكرة النبيه: 319/3.
24. طبقات الحفاظ: 510.
25. بدائع الزهور: 411/1.
26. فوات الوفيات: 39/1.
27. الأنس الجليل: 136/2.
28. الوافي: 307/21.

29. الأنس الجليل: 137/2، حسن المحاضرة: 217/1.
30. بغية الوعاة: 161، حسن المحاضرة: 150/1.
31. ذيل طبقات الحنابلة: 447/4.
32. حسن المحاضرة: 167/1، اليوسفي، نزهة الناظر، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ-1986م: 216.
33. البدر الطالع: 209/2.
34. المصدر نفسه: 312/2.
35. فوات الوفيات: 442/3، بغية الوعاة: 12.
36. حسن المحاضرة: 1/216، بغية الوعاة: 262.
37. فوات الوفيات: 269/2.
38. ذيل طبقات الحنابلة: 453/4.
39. البدر الطالع: 318/1.
40. الأنس الجليل: 136/2.
41. الوافي: 264/7.
42. بغية الوعاة: 25، ذيل مراة الزمان: 248/1.
43. بغية الوعاة: 262.
44. فوات الوفيات: 315/3.
45. حسن المحاضرة: 221/1.
46. البدر الطالع: 153/1.
47. الوافي: 229/2.
48. ابن العماد: شذرات الذهب، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، 1413هـ-1992م: 257/5.
49. الأنس الجليل: 2/106-107.
50. ذيل طبقات الحنابلة: 436/4.
51. إنباء الغمر: 150/1.
52. البدر الطالع: 245/1.
53. فوات الوفيات: 442/3.
54. إنباء الغمر: 15/1.
55. ذيول العبر: 101/4، طبقات الحفاظ: 513.
56. ذيول العبر: 101/4، فوات الوفيات: 409/2.
57. ذيول العبر: 101/4.
58. طبقات الحفاظ: 531.

59. البدر الطالع: 245/1.

60. فوات الوفيات: 149/1، البدر الطالع: 234/2.

61. عقد الجمان: 328/4.

62. البدر الطالع: 209/2.

63. الأنس الجليل: 107/2.

64. فوات الوفيات: 315/3.

65. الوافي: 307/21.

66. البدر الطالع: 208/2.

67. المصدر نفسه: 153/1.

68. ذيل طبقات الحنابلة: 436/4.

69. فوات الوفيات: 315/3.

70. فوات الوفيات: 315/3.

الفصل الرابع

علم الفقه وأصوله

كان علم الفقه من العلوم التي تدرس في كل مركز من مراكز العلم في هذا العصر، وكان كثير من هذه المراكز يدرس الفقه على المذاهب الأربعة، وكان بعضها متخصصاً بمذهب واحد من هذه المذاهب، وقد نتج عن ذلك أن كثر المشتغلون في هذا العلم، وكثرت الكتب المؤلفة في هذا المجال، وكانت هذه الكتب على نوعين: الأول منها كان مركزاً على الدراسات السابقة، والثاني مؤلفات جديدة في هذا المجال، وسوف أحاول استعراض حركة التأليف العلمي لكل مذهب من المذاهب الأربعة على حدة.

أما الفقه الشافعي، فقد تركز جزء من جهد العلماء في هذا العصر على مجموعة من كتب الفقه الشافعي التي ألفت قبل هذا العصر وأشهرها: كتاب "التنبيه" لمؤلفه: إبراهيم بن علي الشيزازي سنة 476هـ، وقد حظي هذا الكتاب بالشرح والاختصار والنظم من فقهاء العصر، فممن شرحه مثلاً: زكي الدين المنذري حيث شرحه بكتاب نفيس في أحد عشر مجلداً[1]، وشرحه أيضاً: جلال الدين الدشناوي[2]، وأبو محمد الفزاري المعروف بالفركاح[3] والعلم العراقي[4] وشرحه ابن الرفعة في عشرين مجلداً سماه: "كفاية التنبيه في شرح التنبيه"[5]، وشرحه أيضاً برهان الدين الفزاري شرحاً حافلاً في عشرين مجلداً[6]، وشرحه نجم الدين البالسي[7] ومجد الدين الزنكلوني[8].

كما جمع محيي الدين النووي مسائل الخلاف التي في "التنبيه" وحررها[9]. وممن اختصره نجم الدين البارزي[10]، وشمس الدين الجهني[11].

وكتب بعضهم استدراكات عليه مثل: قطب الدين السنباطي[12] وكمال الدين النشائي[13].

ونظمه شعراً كل من عز الدين الدريني[14] وضياء الدين الأذرعي الذي نظمه في ستة عشر ألف بيت[15].

كما حظيت مؤلفات الغزالي: "البسيط" و "الوسيط" و "الوجيز" باهتمام علماء العصر، حيث شرحت ونظمت واختصرت، وكتب عليها استدراكات، فقد شرح الوسيط "مثلاً" كل من: ابن الرفعة في كتاب "المطلب" وهو في ستين مجلداً[16]، ونجم الدين القمولي في كتابه "البحر المحيط" وهو في مجلدات كثيرة[17]، وشرحه ابن الفركاح في عشرة أسفار[18]، وأبو الفضل الخلاطي شرحه في عدة مجلدات[19]، وسراج الدين الأرموي في ثماني مجلدات[20].

واختصر نور الدين الأسنائي كلاً من "الوسيط" و "الوجيز"[21]، واختصر "الوجيز" تاج الدين الموصلي في كتابه "التعجيز"[22].

كما حظيت كتب أخرى في الفقه الشافعي برعاية العلماء واهتمامهم في هذا العصر، فقد اختصر عز الدين بن عبد السلام كتاب "نهاية المطلب" للجويني سنة 478هـ[23]، واختصر ابن المنير الإسكندري "تهذيب النحوي"[24] كما شرح بهاء الدين القفطي كتاب "الهادي في الفقه" لقطب الدين النيسابوري[25]، وشرح ابن دقيق العيد كتاب "العمدة"[26]، وشرح برهان الدين الجعبري "التعجيز"[27]، وشرحه أيضاً فخر الدين الطائي الحلبي[28]، كما شرح كتاب "الحاوي" في الفقه الشافعي غير واحد من علماء العصر منهم على سبيل المثال: ضياء الدين الطوسي[29] وركن الدين الإستراباذي[30] وشرف الدين البارزي[31] وشهاب الدين بن شحنة[32] وبهاء الدين السبكي[33] وقطب الدين التحتاني[34] وتقي الدين السبكي[35].

وقد نظمه شرف الدين الحموي[36] والملك المؤيد أبو الفداء[37]، كما أعاد ابن اللبان الدمشقي ترتيب "الأم" للشافعي[38].

هذه أشهر كتب الفقه الشافعي التي لقيت اهتمام فقهاء مصر والشام في العصر المملوكي الأول. أما كتاب الفقه التي ألفت في هذا العصر فكثيرة وأشهرها: "القواعد الكبرى" و "القواعد الصغرى" لعز الدين بن عبد السلام[39] و "المنهاج" لمحيي الدين النووي[40] و "المغني" لسراج الدين بن دقيق العيد[41]، وشرع بهاء الدين بن عقيل في تأليف كتاب في الفقه سماه: "الجامع النفيس في مذهب محمد بن إدريس"[42]، كما ألف صلاح الدين العلائي كتاب "القواعد في الفقه"[43].

وقد حظي كتاب النووي "المنهاج" باهتمام العلماء في هذا العصر شرحاً واختصاراً ونظماً، فقد شرحه كل من: مجد الدين الزنكلوني[44] وتقي الدين السبكي[45] وجمال الدين الشريشي[46] وجمال الدين الأسنوي[47] وإسماعيل بن خليفة الحسباني الذي شرحه في عشرين مجلداً[48]، وشهاب الدين الأذرعي، وله عليه شرحان[49].

وقد نظمه كل من: محيي الدين الزرعي[50]، وشمس الدين الموصلي[51].

وأما في الفقه الحنفي، فقد لقيت كتب "الجامع الكبير" و "الجامع الصغير" لمحمد بن الحسن الشيباني و "الهداية" لبرهان الدين المرغيناني، و "مختصر القدوري"، لقيت هذه المؤلفات اهتماماً وافراً من علماء العصر، فقد توفروا عليها يشرحونها أو يختصرونها أو ينظمونها، فقد شرح

"الجامع الكبير" مثلاً كل من: ابن الجوزي[52] وعلاء الدين الفارسي[53] وفخر الدين الماريديني[54] وابنه تاج الدين[55].

كما شرح "الهداية" كل من: جلال الدين الخبازي[56] وتاج الدين الماريديني[57] وقوام الدين الأتقاني[58] وسراج الدين الهندي[59] ومحيي الدين القرشي[60] وأكمل الدين البابرتي[61]. واختصرها علاء الدين بن التركماني[62]، ونظم فخر الدين التركي الدوركي "مختصر القدوري" في الفقه[63].

أما ما ألف في فقه الحنفية في هذا العصر فأشهرها كتاب: "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع"، وهو في عشر مجلدات لأثير الدين الكاساني[64]، كما نظم عبد الوهاب بن أحمد الدمشقي منظومة رائية في الفقه الحنفي من ألف بيت، وشرحها أيضاً[65].

وفي الفقه المالكي: حظي كتاب "المدونة" لعبد الرحمن بن القاسم المالكي بشرح علماء هذا العصر، فقد شرحه مثلاً عيسى بن مسعود الزواوي[66]، كما حظي كتاب "التلقين" في الفقه أيضاً للقاضي عبد الوهاب باهتمام العلماء، فاختصره داود بن عمر الإسكندري[67].

كما ألفت كتب في الفقه المالكي، أشهرها كتاب لخليل الدين بن إسحق المالكي ألفه على طريقة "الحاوي" في الفقه الشافعي[68].

وفي الفقه الحنبلي، حظي كتاب "المقنع" في الفقه، لموفق الدين بن قدامة المقدسي باهتمام العلماء في هذا العصر، فقد شرحه كل من شمس الدين بن قدامه المقدسي في عشرة مجلدات[69] وزين الدين المنجا في أربعة مجلدات[70]، كما شرح غريب ألفاظه ومفرداته شمس الدين البعلي[71].

واختصر سيف الدين الحوراني كتاب "المغني" للمقدسي أيضاً في مجلدين، كما اختصر كتاب "الهداية" أيضاً لمحفوظ بن أحمد الكلواذاني[72].

ولقي كتاب "العمدة" للمقدسي أيضاً اهتمام علماء العصر، فشرحه تقي الدين بن تيمية في أربعة مجلدات[73]، كما نظم جمال الدين يحيى بن يوسف الصرصري "مختصر الخرقي"، كما نظم "زوائد الكافي على الخرقي أيضاً"[74].

وقد ألفت مجموعة من الكتب في الفقه الحنبلي في هذا العصر، أشهرها: "المحرر في الفقه" و "الأحكام الكبرى" لمجد الدين بن تيمية[75]، و "الفائق في الفقه" لأحمد بن الحسن بن عبد

الله[76]، وكتابا "الرعاية الكبرى" و "الرعاية الصغرى" في الفقه لنجم الدين بن شبيب الحراني[77]، و "القواعد الكبرى" و "القواعد الصغرى" لنجم الدين الصرصري[78]، كما صنف زين الدين البعلي كتاباً في الأحكام على أبواب "المقنع" سماه: "المطلع"[79]، وكتب شمس الدين المقدسي كتاب "الأحكام الكبرى" في سبعة مجلدات[80]، كما نظم شمس الدين المرداوي المقدسي قصيدة دالية طويلة في الفقه[81].

وقد ألفت كتب في شرح هذه المصنفات السابقة منها: "شرح الرعاية في الفقه" لنجم الدين الحراني[82]، "وشرح أحكام مجد الدين بن تيمية"[83]، و"شرح المحرر" له أيضاً[84].

هذه صورة موجزة للمؤلفات التي ألفت في الفقه على المذاهب الأربعة، ولم يقتصر الأمر، في الحقيقة، على تأليف الكتب الجامعة لقضايا الفقه في المذهب، بل وضعت كتب ورسائل كثيرة في قضايا ومسائل فقهية فرعية، منها على سبيل المثال: "فضل صلاة الجماعة"[85]، و "الفرق بين النبي والشهيد والولي والعالم والملك"[86] و "كتاب الصلاة الوسطى"[87] و "كتاب المطلب الأسني في إمامة الأعمى"[88] و "مناسك الحج"[89]، و "الرسالة المنقذة من الجمر في إلحاق الأنبذة بالخمر"[90] و "كشف القناع في حل السماع"[91] و "رفع الشقاق في مسألة الطلاق"[92] و "نواقض الوضوء"، و "التسمية على الوضوء" و "جواز المسح على الخفين المنخرقين والجوربين"[93] و "الصلاة بعد أذان الجمعة"، و "القنوت في الصبح والوتر" و "تحريم اللعب بالشطرنج" و "انتهاز الفرص فيمن أفتى بالرخص"[94] والتحبير بما يحل ويحرم لبسه من الحرير[95] وغيرها الكثير من المسائل الفقهية الفرعية التي لا سبيل إلى حصرها.

أما في علم أصول الفقه، فقد حظيت الكتب السابقة في هذا المجال باهتمام العلماء منها على سبيل المثال: كتاب "المحصول" لفخر الدين الرازي[96]، و "مختصر ابن الحاجب"[97] الذي اختصر فيه "الأحكام " للأموي، و "البديع في الأصول" لابن الساعاتي[98]، كما شرحت كتب أخرى مثل "الأصول" لفخر الدين الرازي[99]، و "المنتخب"[100] و "مقدمة المطرزي" في أصول الفقه[101] و "الحاصل"[102]... وغيرها.

ولم تقتصر جهود العلماء على شرح مؤلفات السابقين، بل ألفت كتب أخرى في هذا المجال اتخذت أساساً في هذا العلم فيما بعد مثل كتاب "القواعد" لشمس الدين الأصبهاني، وهو في أربعة فنون: أصول الفقه والدين والمنطق والخلاف[103]، كما ألف في هذا الفن كل من: أبو شامة المقدسي[104] وشرف الدين النابلسي الذي جمع بين طريقتي الرازي والأموي في

الأصول(105) وجلال الدين الدشنائي(106) وناصر الدين الشيرازي البيضاوي الذي ألف "المنهاج في أصول الفقه"(107)، وقد حظي هذا الكتاب باهتمام العلماء من بعده شرحاً واختصاراً(108)، كما حظي كتاب "الروضة" لمحيي الدين النووي أيضاً باهتمام علماء هذا العصر(109).

ومما ألف في هذا العصر من الكتب أيضاً: "المغني في أصول الفقه" لجلال الدين الخبازي(110)، و "الوافي في أصول الفقه" لنجم الدين الحراني(111)، و "النهاية في أصول الفقه" لصفي الدين الهندي(112) و "التمهيد في تنزيل الفروع على الأصول" لجمال الدين الأسنوي(113) و "معراج الأصول إلى علم الأصول" لنجم الدين الصرصري(114).

هذا وقد ألفت مؤلفات في أصول الدين، لعل أشهرها: "الإيضاح في أصول الدين" لناصر الدين البيضاوي(115)، كما وضع نجم الدين الحراني مقدمة في أصول الدين(116)، وألف ابن دقيق العيد كتاباً في أصول الدين(117)، وصنف صفي الدين الهندي "الفائق في أصول الدين"(118)، ولعفيف الدين اليافعي اليماني "مرهم العلل في أصول الدين"(119)، ولبرهان الدين الحسيني كتاب في أصول الدين فيه سبعون مسألة(120).

مما سبق، نتبين أن علم الفقه وأصوله، وأصول الدين كانت من العلوم المتقدمة في العصر المملوكي الأول، فقد شهدت حركة تأليف وإبداع واسعة المجال، إذ لم تقتصر جهود العلماء في هذا العصر على التوفر على نتاج العلماء في العصور السابقة، بل ألفت الكتب في هذه العلوم، تلك المؤلفات التي تعد أمهات ومصادر رئيسة في هذا المجال.

الهوامش:

1. ذيل مرآة الزمان: 248/1.
2. حسن المحاضرة: 195/1.
3. الوافي: 96/18.
4. حسن المحاضرة: 197/1.
5. تذكرة النبيه: 33/2.
6. تاريخ ابن الوردي: 290/2.
7. تذكرة النبيه: 195/2.
8. الوافي: 226/10.
9. ذيل مرآة الزمان: 283/3.
10. تاريخ أبي الفداء: 144/7.

11. نكت الهميان: 302.
12. حسن المحاضرة: 198/1.
13. السلوك: 31/3.
14. تذكرة النبيه: 130/1.
15. تذكرة النبيه: 212/2.
19. حسن المحاضرة: 145/1.
17. الوافي: 92/8.
18. المصدر نفسه: 96/18.
19. تاريخ ابن الفرات، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1942م: 79/7.
20. تذكرة النبيه: 87/1.
21. الوافي: 157/6.
22. ذيل مرآة الزمان: 14/3.
23. فوات الوفيات: 350/2.
24. حسن المحاضرة: 142/1.
25. بغية الوعاة: 408.
26. حسن المحاضرة: 142/1.
27. الأنس الجليل: 153/2.
28. البدر الطالع: 412/1.
29. تذكرة النبيه: 1/277.
30. الوافي: 54/12.
31. تاريخ ابن الوردي: 219/2.
32. المصدر نفسه: 293/2.
33. البدر الطالع: 81/1.
34. بغية الوعاة: 389.
35. حسن المحاضرة: 204/1.
36. بغية الوعاة: 419.
37. فوات الوفيات: 183/1.
38. حسن المحاضرة: 200/1.
39. الوافي: 520/18.
40. عقد الجمان: 194/2.

41. حسن المحاضرة: 1/195.

42. الوافي: 17/252.

43. الأنس الجليل: 2/106.

44. تذكرة النبيه: 2/318.

45. الوافي: 21/253.

46. تذكرة النبيه: 3/319.

47. البدر الطالع: 1/352.

48. إنباء الغمر: 1/203.

49. البدر الطالع: 1/35.

50. تذكرة النبيه: 3/313.

51. إنباء الغمر: 1/68.

52. العبر: 3/274.

53. حسن المحاضرة: 221/1.

54. تذكرة النبيه: 213/2.

55. الوافي: 182/7.

56. عقد الجمان: 136/3.

57. بغية الوعاة: 145.

58. البدر الطالع: 158/1.

59. البدر الطالع: 505/1.

60. إنباء الغمر: 86/1.

61. حسن المحاضرة: 221/1.

62. الوافي: 21/307.

63. الوافي: 31/5.

64. عقد الجمان: 325/1.

65. بغية الوعاة: 318.

66. حسن المحاضرة: 217/1.

67. بغية الوعاة: 246.

68. السلوك: 124/3.

69. ذيل طبقات الحنابلة: 304/4.

70. شذرات الذهب: 756/7.

71. ذيل طبقات الحنابلة: 356/4.

72. ذيل طبقات الحنابلة: 264/4.

73. الوافي: 27/7.

74. ذيل طبقات الحنابلة: 262/4.

75. شذرات الذهب: 257/5.

76. ذيل طبقات الحنابلة: 453/4.

77. تذكرة النبيه: 186/1.

78. الأنس الجليل: 256/2.

79. ذيل طبقات الحنابلة: 423/4.

80. المصدر نفسه: 436/4.

81. ذيل طبقات الحنابلة: 342/4.

82. المصدر نفسه: 4/356.

83. الوافي: 182/13.

84. المصدر نفسه: 27/7.

85. الأنس الجليل: 136/2.

86. فوات الوفيات: 13/4.

87. فوات الوفيات: 419/2.

88. بغية الوعاة: 10.

89. الوافي: 55/7.

90. تاريخ ابن الفرات: 63/7.

91. الوافي: 96/18.

92. حسن المحاضرة: 145/1.

93. الوافي: 28/7-29.

94. ذيل طبقات الحنابلة: 295/4.

95. الوافي: 270/2.

96. انظر: شروح هذا الكتاب في: حسن المحاضرة: 142/1، ذيل طبقات الحنابلة: 332/4، الوافي: 298/22، عقد الجمان: 108/2، فوات الوفيات: 38/4.

97. انظر شروحه في: فوات الوفيات: 442/3، 1/39، الوافي: 379/17، 52/21، 257، تذكرة النبيه: 303/2، 150، 1/277، الأنس الجليل: 153/2، البدر الطالع: 412/1، 410، 81، السلوك: 16/3، 37، حسن المحاضرة: 150/1، بغية الوعاة: 63، 148، إنباء الغمر: 128/1.

98. انظر شروحه في : الوافي: 52/21، تاريخ ابن الوردي: 323/2، البدر الطالع: 1/505.

99. انظر: الوافي: 379/17.

100. انظر: المصدر نفسه: 379/17، حسن المحاضرة: 198/1.

101. انظر: فوات الوفيات: 442/3.

102. انظر: الأنس الجليل: 256/2.

103. انظر: فوات الوفيات: 38/4.

104. المصدر نفسه: 219/2.

105. بغية الوعاة: 127.

106. الوافي: 55/7.

107. الوافي: 379/17.

108. انظر شروحه في: بغية الوعاة: 304، حسن المحاضرة: 201/1، تذكرة النبيه:124/3، 3/319.

109. انظر شروحه في: عقد الجمان: 194/2، بغية الوعاة: 262.

110. عقد الجمان: 136/3.

111. ذيل طبقات الحنابلة: 331/4.

112. تذكرة النبيه: 72/2.

113. بغية الوعاة: 304.

114. الأنس الجليل: 256/2.

115. الوافي: 379/17.

116. ذيل طبقات الحنابلة: 339/4.

117. حسن المحاضرة: 142/1.

118. الوافي: 239/3.

119. تذكرة النبيه: 303/3.

120. الوافي: 209/8.

الفصل الخامس

علوم اللغة العربية واللسانيات

حظيت مؤلفات النحويين السابقة باهتمام العلماء في هذا العصر، فقد كان النحو من علوم الثقافة العامة التي يحتاجها العلماء في كل التخصصات، بالإضافة إلى أنه ضروري لدرس القرآن الكريم وفهمه، ومن أشهر الكتب التي اهتم بها علماء العصر شرحاً واختصاراً: "الكتاب" لسيبويه، فقد شرحه مثلاً: أبو بكر الجذامي المالقي[1] وشهاب الدين الأصبحي[2]، كما شرح كتاب "الإيضاح" للفارسي و "كتاب اللمع" لابن جني[3]، وكتاب "التلقين" لأبي البقاء العكبري[4]، واهتم علماء العصر كذلك بكتاب "المقرب" لابن عصفور[5] وكتاب "الجمل" للزجاجي[6] والجرجاني[7]، وشرح العلماء كذلك بعض المقدمات في النحو مثل: مقدمة الجزولي[8] ومقدمة المطرزي[9].

أما كتاب "المفصل" للزمخشري فقد لقي عناية فائقة في هذا العصر، فشرح ونظم واختصر[10]، كما اهتم العلماء أيضاً "بملحة الإعراب" للحريري[11].

واهتم العلماء في هذا العصر كذلك "بألفية ابن معطي"، فشرحت شروحاً كثيرة[12]، وشرحت كذلك "كافية ابن الحاجب"، و "مقدمته في النحو" أيضاً[13].

أما جهود علماء هذا العصر، فقد تنوعت بين تأليف كتب نحوية، إلى نظم قصائد في النحو وشرحها، إلى تأليف مقدمات مختصرة في النحو والصرف.

فمثال المؤلفات النحوية: مؤلفات ابن مالك: "تسهيل الفوائد" و "الخلاصة" و "الكافية الشافية" وشرحها، و "عدة اللافظ وعمدة الحافظ" وغيرها[14].

وجمع عبد الرحيم بن علي الإسنائي كتاباً في النحو سماه: "المفيد"[15]، ولأبي حيان الغرناطي مؤلفات في النحو والصرف كثيرة، أذكر منها: "المبدع في التصريف"، و "الموفور"، و "التقريب"، و "اللمحة"، و "الشذرة"، و "نهاية الإعراب في علمي التصريف والإعراب[16].

ولابن قيم الجوزية "بدائع الفوائد" في مجلدين في مسائل نحوية[17]، أما ابن هشام فله في النحو والصرف مؤلفات جليلة أذكر منها: "مغني اللبيب"، و "التحصيل والتفصيل لكتاب التذليل والتكميل" وهو لأبي حيان، و "شرح الشواهد الكبرى والصغرى"، و "قواعد الإعراب"، و "شذور الذهب" وشرحه، و "قطر الندى" وشرحه، و "الجامع الكبير" و "الجامع الصغير"، و "المسائل

السفرية في النحو"[18]... وغيرها، وألف شمس الدين بن الصائغ "التذكرة في النحو" في عدة مجلدات[19]، وألف شمس الدين العيزري كتاباً سماه: "سلسلة الضرب في كلام العرب في النحو"[20]، كما ألف جمال الدين الأسنوي "الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية"[21].

أما من كتب مقدمات في النحو فأشهرهم: أبو شامة المقدسي[22] وجلال الدين الدشنائي[23] ورشيد الدين الفارقي، وله مقدمتان في النحو كبرى وصغرى[24] وتاج الدين الفاكهاني[25] وخليل بن كيكلدي العلائي[26].

أما ما ألف من المنظومات في النحو والصرف، فمنها على سبيل المثال: "ألفية ابن مالك"، والكافية الشافية" له في ثلاثة آلاف بيت[27]، وله "لامية الأفعال" وشرحها[28]، ولابن الوردي: "اللباب في علم الإعراب" و "تذكرة الغريب في النحو"[29]، ولابن قيم الجوزية "الكافية الشافية"[30]، ولمحمد بن عيسى السلسلي أرجوزة في التصريف[31]، ولعفيف الدين اليافعي منظومة في النحو عدتها ثلاثة آلاف بيت سماها "نزهة الألباب"[32]، ونظم فخر الدين التركي الصلغري قصيدة في النحو تضمنت أكثر الحاجبية[33].

وقد حظيت "ألفية ابن مالك" من بين هذه المنظومات باهتمام العلماء من بعده فقد أحصيت لها في هذا العصر ما يزيد عن عشرين شرحاً[34].

كما كان لعلماء العصر جهود أخرى في التأليف في مسائل فرعية في النحو، ومن ذلك: "روض الأفهام في أقسام الاستفهام"[35]، و "كشف القناع في إفادة لو الامتناع" و "نيل العلا في العطف بلا" و "الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص" و "كل وما تدل عليه" و "التهدي إلى معنى التعدي" و "بيان الربط في اعتراض الشرط على الشرط"[36] و "معاني الأدوات والحروف"[37].

كما شارك علماء العصر في التأليف في "إعراب القرآن"[38] و "إعراب مشكل الحديث"[39].

هذه صورة لجهود العلماء في علم النحو، تبين لنا من خلالها مشاركاتهم في جهود السابقين، كما تكشف لنا عن مقدرتهم على التأليف في هذا الموضوع، وقد سدت الكتب المؤلفة في هذه الفترة ثغرة في المكتبة العربية في هذا الموضوع.

أما في مجال علم اللغة، فقد كانت جهود علماء هذا العصر تتركز في اتجاهين:

- **الأول** منها: ينصب على كتب القدماء شرحاً واختصاراً ونظماً وتعليقاً، فقد اختصر ابن

منظور "صحاح الجوهري"(40)، كما اختصره شمس الدين بن الصائغ(41). وعلق عليه رضي الدين الشاطبي(42)، وهذب صفي الدين الأرموي "محكم ابن سيدة"، وجمع بينه وبين "صحاح الجوهري" و "تهذيب الأزهري"(43)، كما نظم شمس الدين بن الموصلي كتاب "فقه اللغة" للثعالبي في كتاب سماه "الدر المنتظم في نظم أسرار الكلم"(44).

- **الاتجاه الثاني**: وهو اتجاه التأليف، فنجد ابن منظور يؤلف لنا "لسان العرب" معجماً يجمع الكثير من كتب اللغة السابقة، إذ يجمع فيه بين "التهذيب" و "المحكم" و "الصحاح" وحواشيه و "الجمهرة" و "النهاية"(45)، ولابن خطيب جبرين أيضاً مجموع صغير في اللغة(46)، كما جمع تاج الدين الحنفي بين "العباب" و "المحكم" في اللغة في مؤلف آخر(47)، كما نجد علماء اللغة في هذا العصر يكتبون في مسائل لغوية فرعية، فمنهم من يكتب كتاباً في "الاشتقاق"(48)، وفي "شرح فصيح اللغة"(49)، ولابن مالك مؤلفات في مسائل فرعية مثل: "فعل وأفعل"، و "إكمال الإعلام بمثلث الكلام" و "النظم الأوجز فيما يهمز" و "الاعتضاد في الظاء والضاد"(50)، ولأبي حيان كذلك رسالة بعنوان: "الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء"(51).

كما نجد من علماء اللغة من يحاول جمع غريب اللغة من القرآن(55)، ومن والحديث الشريف(53).

وكان لعلماء هذا العصر جهود في علم العروض والقوافي(54)، فقد شرحت قصيدة ابن الحاجب في العروض والقوافي، كما وضعت كتب أخرى في هذا الموضوع منها: "مقدمة في العروض" لبدر الدين بن مالك(55) ولهبة الله البارزي(56).

كما نظمت أراجيز أخرى في هذا الموضوع منها واحدة من نظم نجم الدين القصري(57)، وأخرى نظمها أمين الدين الحلي(58)، وثالثة لأبي حيان في علم القوافي(59).

وكان لبعض علماء هذا العصر جهود في التأيف في اللغات الأخرى، فقد كان بعضهم يتقن لغات متعددة منهم على سبيل المثال: زين الدين الأمدي، الذي كان يعرف اللغة المغلية والتركية والفارسية والرومية(60)، وفخر الدين الدوركي الذي كان يعرف اللغتين التركية والفارسية(61) والقاضي علاء الدين بن مراجل الذي كان يعرف اللغة التركية(62).

وقد ترك بعضهم مؤلفات ومنظومات في هذه اللغات وقواعدها، ومنهم على سبيل المثال: أمين الدين بن خولان البعلي الذي ألف كتاباً في اللغة التركية سماه: "العدة القوية في اللغة التركية"(63)، وفخر الدين الدوركي، وله قصيدة في "قواعد لسان الترك"(64)، أما أبو حيان فقد

ترك لنا مؤلفات في اللغتين التركية والفارسية منها: "الإدراك للسان الأتراك"، و "زهو الملك في نحو الترح" و "كتاب الأفعال في لسان الأتراك" و "منطق الخرس في لسان الفرس"(65).

وأما في علم المعاني والبيان، فقد لقي كتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي اهتماماً شديداً من علماء هذا العصر، فقد شرحه على سبيل المثال كل من: قطب الدين الشيرازي(66) وابن شيخ العوينة(67)، كما اختصره كل من: بدرالدين بن مالك في كتابين: الأول: "المصباح في اختصار المفتاح"(68)، والثاني سماه: "روضة الأذهان"(69)، كما اختصره كذلك جلال الدين القزويني في كتاب سماه "التلخيص"، وشرحه في آخر سماه: "إيضاح التلخيص"(70).

وقد اهتم العلماء بكتابي القزويني وابن مالك شرحاً وتلخيصاً، فقد لخص بدر الدين ابن النحوية كتاب ابن مالك في كتاب سماه: "ضوء المصباح" وشرحه في كتاب آخر(71)، كما شرح "تلخيص القزويني" كل من: نجم الدين التميمي(72) وبهاء الدين السبكي(73) ومحب الدين الحلبي(74) وأكمل الدين البابرتي(75). ولعلماء العصر تآليف في هذا الموضوع أشهرها "التبيان" وشرحه، لحسين بن محمد الطيبي(76)، ولشمس الدين العيزري كتاب آخر، سماه "مصباح الزمان في المعاني والبيان" وشرحه(77).

هذه صورة موجزة لجهود علماء العصر في علوم اللغة العربية واللسانيات، تحدثت من خلالها عن: علوم النحو والصرف، واللغة، والعروض، واللسانيات والمعاني والبيان، وقد تكشف لنا أن هذه العلوم قد شهدت ازدهاراً في حركة التأليف، إذ توفر العلماء على دراسة جهود السابقين ومؤلفاتهم، يدرسونها ويشرحونها ويختصرونها، كما ساهموا في هذه المجالات، فتركوا لنا مؤلفات قيمة أغنت المكتبة العربية على مدى العصور التالية.

الهوامش:

1. بغية الوعاة: 207.
2. المصدر نفسه: 167.
3. المصدر نفسه: 207.
4. السلوك: 186/3.
5. انظر: الوافي: 10/2، بغية الوعاة: 145.
6. انظر: بغية الوعاة: 82، 246.
7. انظر: تذكرة النبيه: 303/2، الوافي: 316/4.
8. انظر: الوافي: 102/2.
9. انظر: بغية الوعاة: 408.
10. انظر شروحه في: ذيل مراة الزمان: 221/2، بغية الوعاة: 297، 372، 375، حسن المحاضرة: 257/1، الوافي: 113/18.
11. انظر: تاريخ ابن الفرات: 270/2، بغية االوعاة: 365.
12. انظر شروحه في: الوافي: 131/2، بغية الوعاة: 18، 117، 365، الأنس الجليل: 58/2، السلوك: 325/3، حسن المحاضرة: 223/1.
13. انظر شروحها في: الوافي: 379/17، فوات الوفيات: 39/1، بغية الوعاة: 145، 388.
14. فوات الوفيات: 407/3.
15. الوافي: 386/18.
16. فوات الوفيات: 71/4.
17. بغية الوعاة: 25.
18. بغية الوعاة: 293.
19. المصدر نفسه: 65.
20. بغية الوعاة: 95.
21. بغية الوعاة: 304.
22. الوافي: 113/18.
23. الوافي: 55/7.
24. المصدر نفسه: 431/22.
25. بغية الوعاة: 362.
26. البدر الطالع: 245/1.
27. عقد الجمان: 123/2.

28. الوافي: 359/3.

29. بغية الوعاة: 365.

30. المصدر نفسه: 25.

31. المصدر نفسه: 88.

32. تذكرة النبيه: 303/3.

33. الوافي: 31/5.

34. انظر شروحها في: ذيل طبقات الحنابلة: 436/4، تذكرة النبيه: 110/1، إنباء الغمر: 277/1، فوات الوفيات: 71/4، الوافي: 252/17، حسن المحاضرة: 222/1، 201، 198، بغية الوعاة: 14، 65، 78، 96، 226، 284، 304، 365.

35. بغية الوعاة: 65.

36. المصدر نفسه: 342.

37. الوافي: 270/2.

38. السلوك: 24/3، حسن المحاضرة: 222/1.

39. فوات الوفيات: 407/3.

40. نكت الهميان: 275.

41. فوات الوفيات: 326/3.

42. بغية الوعاة: 83.

43. تذكرة النبيه: 138/2.

44. الوافي: 262/1.

45. المصدر نفسه: 54/5.

46. تاريخ ابن الوردي: 323/2.

47. بغية الوعاة: 140.

48. بغية الوعاة: 18.

49. المصدر نفسه: 140.

50. فوات الوفيات: 407/3.

51. المصدر نفسه: 71/4.

52. انظر: بغية الوعاة: 121.

53. انظر: نكت الهميان: 302، بغية الوعاة: 170.

54. انظر شروحها في: الوافي: 85/3، تاريخ ابن الفرات: 270/2، بغية الوعاة: 304.

55. عقد الجمان: 365/2.

56. نكت الهميان: 302.

57. بغية الوعاة: 372.

58. المصدر نفسه: 82.

59. فوات الوفيات: 71/4.

60. نكت الهميان: 206.

61. بغية الوعاة: 106.

62. عقد الجمان: 4/329.

63. الوافي: 73/4.

64. نكت الهميان: 274.

65. المقري، نفخ الطيب، دار صادر، بيروت، 1388هـ-1968م: 552.

66. بغية الوعاة: 389.

67. تذكرة النبيه: 185/3.

68. بغية الوعاة: 96.

69. الوافي: 204/1.

70. الوافي: 242/3.

71. بغية الوعاة: 117.

72. الوافي: 290/5.

73. بغية الوعاة: 148.

74. إنباء الغمر: 225/1.

75. حسن المحاضرة: 223/1.

76. البدر الطالع: 229/1.

77. بغية الوعاة: 95.

الفصل السادس

التاريخ

اهتم علماء العصر بالتاريخ، فقد اتجهوا أولاً إلى المؤلفات التاريخية السابقة، فعملوا على اختصارها، فقد اختصر أبو شامة المقدسي "تاريخ دمشق" لابن عساكر مرتين، الأولى في خمسة عشر مجلداً، والثانية في خمسة مجلدات[1]، كما اختصره أيضاً ابن منظور، بالإضافة إلى اختصاره "لتاريخ بغداد" للخطيب البغدادي[2]، كما اختصر الذهبي أيضاً هذين الكتابين، بالإضافة إلى اختصاره "لتاريخ نيسابور"[3].

أما إبداعهم في مجال التأليف التاريخي فزاخر، وقد تنوعت مناهجهم واتجاهاتهم فيه، فمنهم من ألف في "تاريخ الإسلام" مثل الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام" الذي يزيد عن عشرين مجلداً[4].

ومنهم من اتجه إلى التاريخ العام، وأذكر من هذه المؤلفات على سبيل المثال: سبط ابن الجوزي الذي ألف "مرآة الزمان" في عشرين مجلداً[5]، وفخر الدين الحسيني جمع تاريخاً ولم يتمه[6]، وكمال الدين القرطبي الذي ألف تاريخاً في مجلدات[7]، وسعد الدين ابن شيخ الشيوخ الذي جمع تاريخاً في مجلدين[8]، وبيبرس المنصوري الدوادار صاحب التاريخ الكبير"زبدة الفكرة"[9]، وقطب الدين اليونيني الذي جمع تاريخاً ذيل به على "مرآة الزمان"، كما اختصر "المرآة" أيضاً[10]، والملك المؤيد أبو الفداء في تاريخه المشهور "المختصر في تاريخ البشر"[11]، وقد ذيل عليه زين الدين بن الوردي حتى سنة وفاته[12]، وجمع شهاب الدين النويري تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً سماه: "نهاية الأرب"[13]، وكتب علم الدين البرزالي تاريخاً بدأ فيه من عام مولده الذي توفي فيه أبو شامة، فكان صلة لتاريخ أبي شامة في خمسة مجلدات[14]، وجمع شمس الدين الجرزي الدمشقي تاريخاً كبيراً[15].

وألف تقي الدين السبكي تاريخاً[16]، وشرع عيسى بن مسعود الزواوي في جمع تاريخ وكتب منه عشرة أسفار[17]، وكتب ابن كثير تاريخه "البداية والنهاية"[18]، وصنف ناصر الدين بن الفرات تاريخاً كبيراً جداً[19]، كما صنف صارم الدين بن دقماق تاريخاً على الحوادث[20].

وكتب بعض المؤرخين في تاريخ دولة معينة، حكمت إقليماً معيناً لفترة من الزمن، وأولهم: أبو شامة المقدسي في كتاب "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"[21]، وكتب جمال الدين بن واصل الحموي في تاريخ دولة بني أيوب المسمى "مفرج الكروب"[22]، وألف ركن

الدين بيبرس الدوادار "التحفة الملوكية في الدولة التركية"(23)، وصنف بدر الدين بن حبيب "درة الأسلاك في دولة الأتراك"(24).

ومنهم من ألف في سيرة ملك أو حاكم مثلاً، ومن هؤلاء عز الدين بن شداد الذي كتب في سيرة الملك الظاهر بيبرس(25)، كما كتب محيي الدين بن عبد الظاهر في سيرة الملك الظاهر وفي سيرة المنصور قلاوون(26)، وصنف بدر الدين بن حبيب "تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"(27).

ومنهم من كتب في تاريخ إقليم معين أو مدينة معينة، فكتب بعضهم في تاريخ مصر ومنهم: تاج الدين الزبيري الذي ألف تاريخاً لمصر سماه: "إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل"(28)، وكتب قطب الدين بن منير الحنفي تاريخاً كبيراً لمصر(29)، كما عمل تاج الدين اليمني تاريخاً لليمن(30).

وألف بعضهم في تاريخ إقليم معين، حيث كتب محمد بن عبد العزيز الإدريسي: "المفيد في أخبار الصعيد"(31)، وصنف كمال الدين الأدفوي "الطالع السعيد في تاريخ الصعيد"(32).

وكتب بعضهم في تاريخ مدينة معينة، حيث صنف جعفر بن محمد الإدريسي تاريخاً للقاهرة(33)، وخرج وجيه الدين الهمداني تاريخاً لمدينة الإسكندرية(34).

كما كتب كمال الدين بن العديم تاريخاً ضخماً لحلب(35)، وجمع عز الدين بن شداد أيضاً تاريخاً لحلب(36)، كما صنف جمال الدين المقدسي "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام(37).

ولم يقتصر العلماء على التأليف في تاريخ إقليم أو مدينة، بل ألفوا في تاريخ معلم بارز في مدينة معينة، فعمل وجيه الدين الهمداني تاريخاً لمنارة الإسكندرية(38).

ومن المؤرخين من اهتم بتاريخ التراجم، فكتب ابن خلكان كتابه "وفيات الأعيان"(39)، الذي نال شهرة واسعة في هذا العصر، فأكمل تراجمه كل من ابن شاكر الكتبي في "فوات الوفيات"(40)، وصلاح الدين الصفدي في "الوافي بالوفيات"(41)، وكتب الصفدي كتاباً آخر في التراجم بعنوان: "أعوان النصر في أعيان العصر"(42)، ويؤلف في هذا الاتجاه الذهبي في "تاريخ النبلاء" وهو في عشرين مجلداً، وفي "العبر في خبر من غبر"(43).

وضمن هذا المنهج في التأليف التاريخي، نجد من العلماء من يؤلف في الطبقات. فيصنف بعضهم "طبقات القراء" و "طبقات الحفاظ"(44)، وضمن الحديث عن طبقات المحدثين والحفاظ نجد منهم من يؤلف في الجرح والتعديل، فيؤلفون في طبقات الثقات والضعفاء(45)، كما يصنف

بعضهم في طبقات الفقهاء(46)، ومنهم من يكتب في تاريخ القضاة(47)، كما يؤلف بعضهم في أخبار اللغويين والنحاة، فيكتب تاج الدين بن مكتوم مثلاً تاريخاً في عشر مجلدات(48)، ويصنف ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء(49).

ونجد بعضهم من يخصص تاريخاً في طبقات مذهب معين، فيؤلف عماد الدين بن باطيش في "طبقات الشافعية"(50)، ويصنف مثله كذلك محيي الدين الأسنوي(51) وتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي(52)، ويكتب صارم الدين بن دقماق في "طبقات الحنفية"(53) وكذلك محيي الدين بن أبي الوفا(54)، ويصنف ابن رجب الحنبلي في "طبقات الحنابلة"(55).

وضمن الحديث عن منهج التأليف في التراجم والطبقات، نجد من علماء هذا العصر من يؤلف معجماً لشيوخه الذين تلقى عنهم، أو تلمذ لهم، وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع.

ولم ينس مؤرخو العصر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع بعضهم إلى "السيرة" لابن إسحق، فاختصرها ومنهم عماد الدين الواسطي(56)، ومنهم من نظمها مثل: عبد العزيز الديريني(57)، ومنهم من ألف فيها مثل: فتح الدين بن سيد الناس الذي ألف كتاباً في السيرة انتفع به الناس من أهل عصره، ومن جاء بعدهم(58)، كما ألف عز الدين الإربلي في السيرة كتاباً يشتمل على مجلدين(59)، وكتب علاء الدين مغلطاي في السيرة كتاباً سماه "الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم"(60). ولم يفت مؤرخي هذا العصر الكتابة في فضائل الصحابة، فيؤلف فتح الدين بن القيسراني كتاباً في معرفة الصحابة(61)، ويصنف ابن سيد الناس في ذكر فضائلهم "تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة"(62).

ويخصص بعضهم الحديث عن واحد من الصحابة، فيخرج عز الدين الإسنائي كتاباً في فضل أبي بكر رضي الله عنه(63)، وللذهبي في ذلك مؤلفات في سير الخلفاء الراشدين وهي: "توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق" و "نعم السمر في سيرة عمر" و "التبيان في مناقب عثمان" و "فتح المطالب في أخبار علي بن أبي طالب"(64).

كما كتب بعضهم في سيرة بعض الخلفاء العباسيين، مثال ذلك: ابن سيد الناس في كتابه: "نور العيون في سيرة الأمين والمأمون"(65).

ونجد اتجاهاً لدى مؤرخي هذا العصر، يقوم على التاريخ لحادثة معينة، مثال ذلك ما كتبه عز الدين الرسعني عن "مصرع الحسين"(66).

هذا عرض لمناهج المؤرخين في هذا العصر، يكشف لنا أن هذا الفن كان من العلوم المزدهرة في هذا العصر، فقد كتب مؤرخو هذا العصر في تاريخ الإسلام، وفي التاريخ العام، وفي تاريخ دولة معينة، وفي تاريخ حاكم بعينه، أو في تاريخ بلد أو إقليم، كما كتبوا في التراجم والطبقات، وأطالوا في ذلك، وألفوا كذلك في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، أو في سيرة الصحابة والخلفاء.

الهوامش:

1. الوافي: 113/18.
2. المصدر نفسه: 54/5.
3. فوات الوفيات: 315/3.
4. البدر الطالع: 110/2.
5. عقد الجمان: 132/1.
6. الوافي: 193/12.
7. الوافي: 139/2.
8. الوافي: 332/13.
9. ذيول العبر: 74/4.
10. ذيل طبقات الحنابلة: 379/4.
11. تذكر النبيه: 221/2.
12. تذكرة النبيه: 130/2.
13. الوافي: 165/7.
14. فوات الوفيات: 196/3.
15. الوافي: 22/2.
16. حسن المحاضرة: 199/1.
17. البدر الطالع: 520/1.
18. إنباء الغمر: 45/1.
19. حسن المحاضرة: 266/1.
20. حسن المحاضرة: 266/1.
21. ذيل مراة الزمان: 367/2.
22. نكت الهميان: 250.
23. تذكرة النبيه: 158/2.
24. إنباء الغمر: 249/1.
25. الوافي: 3/2.
26. الوافي: 257/17.
27. البدر الطالع: 205/1.

28. حسن المحاضرة: 266/1.
29. ذيول العبر: 101/4.
30. الوافي: 23/18.
31. حسن المحاضرة: 265/1.
32. تذكرة النبيه: 121/3.
33. حسن المحاضرة: 265/1.
34. العبر: 327/3.
35. الوافي: 421/22.
36. العبر: 356/3.
37. الأنس الجليل: 157/2.
38. ذيل مراة الزمان: 103/3.
39. الوافي: 308/7.
40. تذكرة النبيه: 266/3.
41. السلوك: 87/3.
42. السلوك: 87/3.
43. فوات الوفيات: 315/3.
44. الوافي: 163/2.
45. سبق الحديث عن هذا الموضوع في علم الحديث.
46. حسن المحاضرة: 201/1.
47. الوافي: 188/4.
48. الوافي: 23/18.
49. ذيل مراة الزمان: 437/2.
50. العبر: 275/3.
51. حسن المحاضرة: 200/1.
52. البدر الطالع: 410/1.
53. حسن المحاضرة: 266/1.
54. حسن المحاضرة: 222/1.
55. البدر الطالع: 328/1.
56. الوافي: 221/6.
57. حسن المحاضرة: 197/1.

58. البدر الطالع: 249/2.

59. تذكرة النبيه: 167/2.

60. البغدادي، هدية العارفين، مكتبة المثنى، بغداد: 1955م: 468/2.

61. تذكرة النبيه: 261/1.

62. الوافي: 289/1.

63. الوافي: 236/9.

64. فوات الوفيات: 315/3.

65. اليوسفي: نزهة الناظر: 216.

66. ذيل طبقات الحنابلة: 274/4.

الفصل السابع

الطب

كانت صناعة الطب، وما زالت، من أشرف الصنائع، وقد كانت هذه الصناعة متقدمة في العصر المملوكي الأول، فكان هناك أنواع من التخصصات في الطب وهي: الباطنية والجراحة والعظام وطب العيون، بالإضافة إلى الصيدلة[1]، كما كان للأطباء رئاسة أو "نقابة" تنظم العمل داخل هذه المهنة[2].

ومما يدل على تقدم هذا العلم ما كان يدره من مال على صاحبه والمشتغل به، فهذا رئيس الطب بمصر إبراهيم بن الرشيد بن أبي الوحش بن أبي حليقة يخلف تركة قيل: إنها بلغت ثلاثمائة ألف دينار[3]، ومن هنا فقد كثر الأطباء في هذا العصر، ونشطوا نشاطاً ظاهراً، فقد توفروا على كتب القدماء في الطب يقرأونها، ويدرسونها لتلامذتهم، أو يشرحونها، أو يختصرونها. فقد كانت أشهر الكتب التي لاقت رواجاً واهتماماً عند أطباء العصر هي: "الكليات من كتاب القانون" لابن سينا، فقد شرحه يعقوب بن غنائم[4]، وعلاء الدين بن النفيس[5] وقطب الدين الشيرازي[6]، كما شرح كتاب "الفصول" لأبقراط[7]، وكتاب "المسائل" لحنين بن إسحق[8].

وقد اختصر هذه الكتب وغيرها نجم الدين بن اللبودي[9]، كما كتب بعضهم حواشي عليها، ومنهم شرف الدين بن الرحبي الذي وضع حواشي على كتاب "القانون" لابن سينا[10].

كما كان للأطباء في هذا العصر مشاركة في التأليف، فقد صنفوا المؤلفات القيمة في هذا العلم، تنوعت اتجاهاتها وموضوعاتها بين كتب الطب العامة التي تبين أعراض الأمراض، وطرق علاجها، مثل: كتاب "المدخل في الطب" و "العلل والأمراض" وكتاب "التدقيق في الجمع والتفريق"، حيث ذكر فيه مؤلفه الأمراض وما يتشابه منها في أكثر الأمر لمؤلفها: نجم الدين بن المنفاخ[11]، ومثلها كتاب "الشامل في الطب" لابن النفيس[12]، و "التذكرة" في الطب في ثلاثة مجلدات، لعز الدين السويدي[13]، و "النهج الواضح في الطب" للصاحب أمين الدولة[14].

ومن هذه المؤلفات ما كان متخصصاً في مجال الأدوية مثل: كتاب "المختار في ألف عقار" للرشيد بن أبي حليقة[15]، ومنها ما كان متخصصاً في الوقاية من الأمراض مثل كتاب: "حفظ الصحة"[16]، ومنها ما كان متخصصاً في الجراحة مثل كتاب "العمدة في صناعة الجراح" في عشرين مقالة، عشر مقالات علم وعشر عمل[17]، ومنها ما كان متخصصاً في الكحل (طب العيون) مثل كتاب "المهذب في الكحل"[18]، وكتاب "كشف الرين في أمراض العين"[19]، وكتاب

"القانون في أمراض العين"[20]. كما كان بعضها مختصاً بالتشريح مثل كتاب "خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنافعها"[21]. كما كتب بعضهم في طريقة إرشاد المريض إلى العلاج والدواء عند عدم وجود الطبيب، ومثل ذلك "غنية اللبيب عند غيبة الطبيب"[22]، و "إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد عند غيبة الطبيب"[23].

ولم ينس أطباء العصر التأليف في الطب النبوي، فشرح نجم الدين ابن المنفاخ أحاديث نبوية تتعلق بالطب[24]، كما ألف علاء الدين الصفدي كتاب "الأحكام النبوية في الصناعة الطبية"[25].

كما عرف أطباء هذا العصر العلاج النفسي واستخدموه في علاجهم[26]، كما كتب رشيد الدين أبو حليقة مقالة في "أن الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية، إذ الروحانية كمالات وإدراك الكمالات، والجسمانية إنما هي دفع آلام خاصة، وإن زادت أوقعت في آلام أخر"[27].

الهوامش:

1. انظر: صبح الأعشى: 251/11.
2. انظر: المصدر نفسه: 376/11.
3. ذيول العبر: 18/4.
4. ذيل مرآة الزمان: 179/4.
5. عقد الجمان: 374/2.
6. البدر الطالع: 299/2.
7. ذيل مرآة الزمان: 4/312.
8. عقد الجمان: 374/2.
9. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، دار مكتبة الحياة، بيروت: 668.
10. عيون الأنباء: 682.
11. ذيل مرآة الزمان: 92/1.
12. عقد الجمان: 374/2.
13. فوات الوفيات: 48/1.
14. عيون الأنباء: 728.
15. فوات الوفيات: 248/4، انظر: الوافي: 200/3.
16. فوات الوفيات: 248/4.
17. ذيل مرآة الزمان: 312/4.
18. الوافي: 25/2.
19. المصدر نفسه: 266/21.
20. المصدر نفسه: 351/22.
21. المصدر نفسه: 25/2.
22، 23. البدر الطالع: 79/2.
24. الوافي: 246/6.
25. المصدر نفسه: 266/21.
26. انظر: عيون الأنباء: 595.
27. المصدر نفسه: 597.

الفصل الثامن

الفلسفة والمنطق

يبدو أن الفلسفة من العلوم التي لم يكن مرغوباً فيها في العصر المملوكي، فهذا ابن خلدون يعقد فصلاً في "مقدمته": "في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها" وذلك لأن شررها في الدين كثير، فوجب أن يصدع بشأنها، ويكشف عن المعتقد الحق فيها[1]، كما كان ينظر إلى أصحاب هذا العلم والمشتغلين به نظرة فيها الشك والطعن في دينه أحياناً، فقال أبو شامة في حق شخص يعرف بالفخر بن البديع البندهي: "وفيها (أي سنة 657هـ) توفى شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علوم الأوائل ... وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام"[2]، ويبدو أن هذا الشك قد استمر بعد ذلك، فهذا الصفدي يقول عن عز الدين الأربلي: "كان مظلماً في دينه ونحلته، متفلسفاً، صادقاً في نقله.."[3].

أما المنطق، فقد شرحت بعض الكتب والمسائل السابقة فيه، كما اختصر بعضها، وألفت بعض الكتب الجديدة في هذا المجال، ويبدو لي من استعراض أسماء المشتغلين بهذا العلم أن الثقافة الدينية واللغوية تغلب عليهم، ولعل ذلك يعود إلى حاجة أرباب هذه العلوم إلى هذا العلم في علومهم.

أما أشهر الكتب والمسائل التي اهتم بها علماء العصر في هذا المجال، فكان كتاب "الشفاء" لابن سينا، وهو كتاب استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها[4]، فقد اختصره شمس الدين الخسروشاهي[5]، كما نظمه نجم الدين الخضراوي[6].

وشرح ابن واصل الحموي كتابي "الجمل" و "الموجز" للأفضل الخونجي[7]، وشرح ناصر الدين الشيرازي[8] وشمس الدين أبو الثناء الأصفهاني كتاب "المطالع في المنطق"[9]، كما شرحه القطب التحتاني[10]، كما شرح تاج الدين بن التركماني[11] والقطب التحتاني[12] "الشمسية في المنطق لنجم الدين القزويني[13]، وعلق أبو حيان على مسائل نهاية ابن رشد في كتابه "مسلك الرشد"[14]، كما شرح كتاب "أسرار الاهتداء" لشهاب الدين السهروردي[15].

أما الكتب التي ألفت في هذا المجال فأهمها: "المدخل إلى علم المنطق والطبيعي والإلهي" ليعقوب بن غنائم[16] و "مقدمة في المنطق" لبدر الدين بن مالك[17]، وكتاب "غاية المطلب" و

"القواعد" لشمس الدين الأصبهاني[18]، وكتاب "هداية الألباب"[19] و "الأنبروزية في المنطق" لابن واصل الحموي[20]، وكتاب "غرة التاج في الحكمة" لقطب الدين الشيرازي[21]، وكتاب "ناظر العين" لمحمود ابن عبد الرحمن شمس الدين الأصبهاني[22]، وكتاب "الكوكب المشرق" لشمس الدين العيزري[23].

الهوامش:

1. انظر: مقدمة ابن خلدون: 514.
2. ذيل الروضتين لأبي شامة: 202، انظر: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية: 289.
3. الوافي: 399/11.
4. انظر: مقدمة ابن خلدون: 491.
5. الوافي: 73/18.
6. حسن المحاضرة: 194/1.
7. نكت الهميان: 250.
8. الوافي: 17/179.
9. تذكرة النبيه: 150/2.
10. بغية الوعاة: 389.
11. الوافي: 182/7.
12. بغية الوعاة: 389.
13. كشف الظنون: 1063/2.
14. فوات الوفيات: 71/4.
15. بغية الوعاة: 389.
16. ذيل مرآة الزمان: 179/4.
17. عقد الجمان: 365/2.
18. فوات الوفيات: 38/4.
19. الوافي: 85/3.
20. تاريخ ابن الوردي: 244/2.
21. بغية الوعاة: 389.
22. البدر الطالع: 298/2.
23. بغية الوعاة: 95.

الفصل التاسع

العلوم الطبيعية والرياضية

اقترن علم الحساب من هذه العلوم خاصة بعلم الفرائض أو علم الوراثة[1]، ولذلك فإن الثقافة الدينية والفقهية خصوصاً تغلب على أرباب هذه الصناعة، فكثير ممن برع في الفقه برع في الحساب، فهذا شمس الدين الكلاعي الفرضي، اشتغل الناس عليه في الفرائض والحساب[2]، وهذا ناصر الدين بن العتال الحنفي برع في الفقه والحساب[3]، وهذا صفي الدين الحنبلي أيضاً كان علامة في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة[4]، وهذا بالطبع يعود لحاجة كل من العلمين للآخر.

وقد وجد من علماء هذا العصر من ألف في الحساب ومنهم: شمس الدين ابن الأكفاني الذي كتب "اللباب في الحساب"[5]، وكتب المهذب محمد بن محمد الحلبي الحاسب "مقدمة في الحساب"[6]، وصنف أبو العباس بن البناء كتاب "التلخيص في الحساب"[7].

ومن العلوم الرياضية التي عرفت في ذلك الوقت علوم الجبر والمقابلة، وقد ذكرت المصادر أسماء مشهورة في هذا العلم منهم: صفي الدين الحنبلي ونجم الدين الحراني الذي كان له يد طولى في علم الخلاف والجبر والمقابلة[8].

ومن فروع هذه العلوم أيضاً: علم الهندسة، وقد كثر المشتغلون بهذا العلم أيضاً، أذكر منهم الحكيم بن الأكفاني الذي كان إماماً في الهندسة والحساب[9].

ومن فروع هذه العلوم أيضاً: علم المساحة، ومن أشهر المشتغلين بهذا العلم صدر الدين بن العطار[10]، وناصر الدين بن العتال الحنفي[11]. ومن فروعه أيضاً علم الإصطرلاب والأرباع والجيب والكرة وغير ذلك. ومن أشهر من عرف بذلك أمين الدين الأبهري[12] وشمس الدين المزي[13].

ويبدو لي مما سبق أن علم الحساب والجبر والمقابلة هي أكثر العلوم الرياضية التي شاعت في ذلك الوقت لسببين:

- **الأول**: ارتباط هذه العلوم بعلم الفرائض كما سبق أن ذكرت، وهو أحد فروع الفقه المعروفة في ذلك الوقت، وعن طريق هذه العلوم يمكن معرفة نصيب كل من الورثة من الميراث.

- **الثاني**: ارتباط هذه العلوم بالوظائف والدواوين الرسمية، فقد كان المتعلمون حريصين على إتقانها ليحظى أحدهم بوظيفة ديوانية، ويستدل على ذلك أن كثيراً ممن أتقنوا هذه العلوم كانت لهم مناصب ديوانية، أو رؤساء في الدواوين الرسمية، ومن هؤلاء مثلاً: معين الدين بن حشيش ناظر الجيش بالديار المصرية، وهو ذو يد طولى في معرفة حساب الديوان[14]، وعلم الدين سليمان بن إبراهيم، وهو بارع في صناعة الحساب[15]، ومحب الدين محمد ابن يوسف الحلبي ناظر الحبشة، وكان له يد طولى في الحساب[16].

ومن العلوم الطبيعية التي عرفت في ذلك الوقت علم الفلك والهيئة والأرصاد والتقاويم والأنواء والأزياج[17]، وقد كثر المشتغلون بهذه العلوم، وأشهرهم: المنجم اليشكري الذي كانت له يد طولى في علم الفلك والتقويم وعمل الأزياج[18]، وزين الدين عمر بن مكي المعروف بابن المرحل الذي برع في علوم شتى منها علم الهيئة[19]، وشمس الدين الشرواني الذي كان عارفاً بالنجوم والأرصاد[20]، وأبو العباس بن البناء الذي كان له كتاب في الأنواء[21]، ونجم الدين القحفازي الذي كان له معرفة بالتقاويم[22]، وعلاء الدين بن الشاطر الذي كان يعرف بالمطعم الفلكي[23].

مما سبق، يبدو لي أن علم الفلك والهيئة كان من العلوم المعروفة في ذلك الوقت، وذلك لارتباطه أيضاً بالعلوم الشرعية، فمعرفة أوقات الصلاة والمواسم الدينية تقتضي من المسلمين التعرف على هذه العلوم ووجوب تعلمها.

الهوامش:

1. انظر: مقدمة ابن خلدون: 451.
2. إنباء الغمر: 81/1.
3. إنباء الغمر: 67/1.
4. البدر الطالع: 404/1.
5. الوافي: 25/2.
6. ذيل مرآة الزمان: 79/1.
7. البدر الطالع: 108/1.
8. عقد الجمان: 336/3.
9. الوافي: 25/2.
10. تذكرة النبيه: 142/3.
11. إنباء الغمر: 67/1.
12. تذكرة النبيه: 242/2.
13. نكت الهميان: 244.
14. تذكرة النبيه: 197/2.
15. الوافي: 340/15.
16. بغية الوعاة: 118.
17. مقدمة ابن خلدون: 487-489.
18. الوافي: 185/22.
19. عقد الجمان: 136/3.
20. الوافي: 142/2.
21. البدر الطالع: 108/1.
22. فوات الوفيات: 23/3.
23. إنباء الغمر: 172/1.

الفصل العاشر

علوم مختلفة

الموسيقى: وجد من رجال العصر المملوكي الأول من عرف الموسيقى واشتغل بها، أذكر منهم مثلاً: الأمير شهاب الدين بن جلدك الذي كان عارفاً بصنعة الألحان وعلم الموسيقى[1]. ومنهم: شمس الدين الدهان الذي كان يعرف الموسيقى وينظم الشعر ويلحنه، فيغني به المغنون، وكان يلعب بالقانون[2]، ومنهم: شمس الدين بن الجوخي الذي كان عارفاً بالموسيقى ويعلم أهل الوعظ الألحان[3].

وقد وجد من ألف في هذا الفن، ومنهم: شمس الدين بن أكر، قال عنه الصفدي: "إمام عصره في علم الموسيقى، شغل جماعة من أكابر علم النغم وقرأوا عليه، ووضع كتاباً في فن الموسيقى سماه: "غاية المطلوب في علم الأنغام والضروب"، قال لي: ظهر لي خطأ جماعة من المتقدمين في هذا الفن مثل الفارابي وغيره، وقد برهنت على ذلك[4].

ويبدو لي أن هذا الفن كان في خدمة طائفة الصوفية التي نشطت نشاطاً ملحوظاً في هذا العصر، إذ كان شمس الدين بن أكر السابق ذكره صوفياً، له زاوية عند مشهد الحسين بالقاهرة[5]، وكان شمس الدين بن الجوخي أيضاً يعلم أهل الوعظ الألحان[6].

ومن المعارف التي كانت شائعة في ذلك الوقت: تعبير الرؤيا أو تفسير المنامات، وقد عرف هذا العصر الكثير ممن أتقنوا هذه الصناعة، أذكر منهم: أيدمر السنائي الذي كان له معرفة بتعبير الرؤيا[7]، وشمس الدين المزي الذي كان إليه المنتهى في تفسير المنامات، يضرب به المثل في وقته[8]، وشهاب الدين المقدسي النابلسي مفسر المنامات، وله في ذلك مقدمة سماها: "البدر المنير"[9]، وصلاح الدين القواس[10]، وابن شيخ العوينة علي بن الحسين، وله كتاب في هذا الموضوع سماه: "عَرْف العبير في عُرْف التعبير"[11].

ومن معارف ذلك العصر أيضاً: "حل المترجم والألغاز"، ولهم فيها تصانيف، وممن برع في ذلك: عفيف الدين النحوي، وقد انفرد بالبراعة في حل المترجم والألغاز، وله في ذلك تصانيف منها: "عقلة المجتاز في حل الألغاز"، ومصنف في حل المترجم[12]، ومنهم غرس الدين الأربلي، وعنده معرفة بالنحو وحل المترجم، ومن نظمه: "الألفية في الألغاز المخفية"، وهي ألف لغز في

ألف اسم[13]، ومنهم أيضاً: ابن دفتر خوان الموصلي، وله في ذلك كتاب "الحكم الموجزة في الرسائل الملغزة"[14]. ومن هؤلاء: تاج الدين بن الدريهم وله في ذلك: "المبهم في حل المترجم" و"غاية الإعجاز في الأحاجي والألغاز"[15].

ويبدو لي أن هذا النوع من المعارف كان من الأدب الفكاهي الهزلي.

الهوامش:

1. تاريخ ابن الفرات: 37/7.
2. الوافي: 209/4.
3. إنباء الغمر: 224/1.
4. الوافي: 305/4.
5. الوافي: 305/4.
6. إنباء الغمر: 224/1.
7. الوافي: 15/10.
8. نكت الهميان: 264.
9. فوات الوفيات: 86/1.
10. الوافي: 248/16.
11. الوافي: 52/21.
12. الوافي: 308/21.
13. الوافي: 249/10.
14. المصدر نفسه: 466/21.
15. البدر الطالع: 477/1.

الفصل الحادي عشر

ظاهرة الموسوعات

وجد في هذا العصر ظاهرة فريدة تقوم على جمع علوم وفنون مختلفة في مؤلف ضخم، وقد ساعد على وجود هذه الظاهرة مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية، ولعل أهمها: ما أصيبت به الحضارة العربية الإسلامية من نكبات ودمار في المشرق والمغرب، على أيدي التتار في بغداد، ومحاكم التفتيش في الأندلس، حيث أتلفت آلاف الكتب والمؤلفات، فقد تولد لدى العلماء في مصر والشام، وكانتا كما تبينا قبله العلماء في ذلك العصر، تولد لديهم غيرة دينية وقومية على التراث العربي الإسلامي، فبذلوا قصارى جهدهم للمحافظة على ما تبقى منه، ولمّ أشتاته في مصنفات جامعة شاملة، وقد وجد هؤلاء العلماء التشجيع والدعم من الحكام والسلاطين في ذلك الوقت،بل إن بعض هذه المصنفات قد ألفت لهم، وبعضهم شارك في تأليفها، بالإضافة إلى الجو العلمي الذي كان سائداً في ذلك الوقت، حيث كان التعليم متاحاً للجميع ليأخذوا منه بالقسط الذي يريدون مجاناً، فقد توافرت لدى العلماء فرصة الإلمام والجمع بين علوم مختلفة، فنجد منهم من كان ملماً في التفسير والفقه والحديث والنحو والتاريخ والمنطق والحساب... وغيرها من العلوم المختلفة، فيروى مثلاً عن ابن واصل الحموي أنه كان يشغل في حلقته ثلاثين علماً(1)، ويروى عن جمال الدين السرمري العقيلي أن مصنفاته بلغت مائة، وأنها في نيف وعشرين علماً(2).

ومن أشهر هذه المصنفات كتاب لشرف الدين التيفاشي، وكانت وفاته في القاهرة، ومصنفه في أربعة وعشرين مجلداً، ورتبه وبوبه وجمع فيه من كل شيء، وسماه: "فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب"(3)، ومنها مصنف لابن الصفار المارديني، يحتوي على آداب كثيرة، وسماه كتاب "أنس الملوك"(4)، ومنها كذلك كتاب كبير لشمس الدين الخويي يحتوي على عشرين علماً(5)، ومصنف آخر ألفه ابن قرصة الفيومي وسماه: "نتف المحاضرة"، يتضمن مسائل فقيهية ونحوية ولغوية وأدبية(6)، ومنها مؤلف كبير صنفه علاء الدين الكندي الوداعي، ويدعى "التذكرة الكندية" أو "الوداعية"، وهو في خمسين مجلداً فيه عدة فنون(7)، ومنها كتاب "الكناش" للملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، وهو في مجلدات كثيرة(8)، ويبدو لي من اسمه أنه يجمع علوماً متنوعة، كما كان الملك المؤيد نفسه ممن يجمعون ثقافة واسعة تضم علوماً وفنوناً كثيرة، ومنها كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري، وهو في الأدب والتاريخ، ويشتمل على ثلاثين مجلداً(9)، ومنها كتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"

لشهاب الدين بن فضل الله العمري، وهو في عشرين مجلداً[10]، ولصلاح الصفدي كتاب جامع سماه "التذكرة الصفدية" وهو في ثلاثين مجلداً، جمع فيه نوادر الأشعار ولطائف الأدبيات نظماً ونثراً[11]، ولابن أبي حجلة كتاب سماه: "حاطب ليل" في مجلدات كثيرة، جمع فيه فوائد أدبية كالتذكرة[12].